الماركسية والإسلام

مصطفى محمود

دار المعارف بمصر

الناشر : دار المعارف بمصر – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة ج . م . ع .

بسم الله الرحمن الرحيم

الحـــرية أولاً

الحرية هى نقطة البدء

وليست الحرية هى أن نجد ما نأكله (كما يعرّفها بذلك الماديون أصحاب فلسفة المضمون الاجتماعى للحرية) فالحيوان يجد ما يأكله . وضمان الطعام لا يكفى ليجعل من الإنسان إنساناً . . فالإنسان حيوان حرّ يفكر لنفسه ، ويقرر لنفسه ، وقد يختار الجوع فيصوم ، وقد يختار الموت دفاعاً عن قضية فيموت . . وقد يتطوع فى حرب انتحارية يعلم أنه لن يعود بعدها ، لأنه قرر أن يقول : « لا » .

وفى هذه القدرة على أن يقول « لا » للظلم ، « لا » للباطل ، يكمن المعنى الوحيد لحريته .

فإذا سلبناه هذه الحرية فإنا نسلبه فى الوقت نفسه الوسيلة الوحيدة لخلاصه .. فلا فضيلة لمن يطيع القانون خوفاً .

وأمام الخوف والإرهاب يمكننا أن نتصنع الفضيلة ، ولكن لا يمكننا أن نكون فضلاء حقيقة لأن الخوف يسلبنا الكرامة . . والعطاء يستحيل أمام من يذكرنى فى كل لحظة أنى مجبر مكره على العطاء . . وأى عطاء هذا الذى

To: www.al-mostafa.com

سوف أعطيه . . ربما أعطيت بالقول والكلام وبالكذب والنفاق ، ولكنى لن أعطى بالفعل . . والنتيجة هى مجتمع المخاوف والزلفى ، وطلب الحماية بالتقرب إلى السلطة وطلب الأمان بالكذب على الرؤساء وطلب المنفعة بالتجمع فى شلل .

والإجادة والإتقان والعمل بضمير وإخلاص قيم لا يمكن إحكام الرقابة عليها ، والنتيجة أن الحاكم لن يجد الوسيلة إلى ذلك المستوى من الإنتاج الذى يحلم به لأن المحبة مفتقدة ، والخوف هو الذى يقف رقيباً على جميع الآلات .

أما الكلام عن نشر الأخلاقيات الجديدة بالتلقين المستمر عن طريق الإذاعة والشعارات والملصقات فهو تفاؤل ساذج . فالأخلاق تنمو بتفاعل من الداخل وليس بالإملاء . . والتلقين مجرد طلاء من الخارج ، إن لم يجد السطح الملائم لاستقباله فإنه يجف ويسقط من فوقه بعد قليل .

التغيير الأخلاقى أعمق كثيراً من مجرد التلقين ؛ إنه اقتناع داخلى ، وارتباط وجدانى ، واعتناق يحتاج إلى الحرية المحضة .

والجندى الجبان لا يمكن أن يتحول إلى جندى شجاع بعد برنامج إذاعة . . والمؤثرات العفوية التى يمكن أن تلقيها كلمة إذاعية فى قلب جندى ما تلبث أن تتبخر بعد أول طلقة . . وإنما شجاعة المحارب لا تكون إلا نتيجة إيمان واقتناع ومحبة مطلقة لشىء يؤمن به ويدافع عنه حتى الموت . . هذا الشىء لا يمكن أن يعتنقه إلا عن حرية كاملة واختيار . . الحرية هى روح الموقف الأخلاقى .

وبدون الحرية لا أخلاق ولا إخلاص ولا إبداع ولا إتقان ، ولا واجب ؛ فمن أجل أن نلتزم بواجب لابد أن نأخذه على عاتقنا بكامل حريتنا ، لا لمجرد تكليف من رئيس .

وتأجيل الحرية بدعوى الوصاية على الشعب فى مرحلة انتقال هو قرار فى الوقت نفسه بتأجيل الصدق والأمانة والشجاعة الضرورية لقيام المجتمع السليم .

الحرية إذن هى نقطة الانطلاق .

ولكن الحرية الآن موضوع مختلف عليه ، وكل فرقة سياسية تفهمها فهماً خاصاً .

وقد ظلت الدماء تسيل بطول التاريخ فى صراع المبادئ والطبقات ، وكان القتلة من جميع الأطراف يقتلون دائماً باسم الحرية وتحت رايتها .

والحرية اليوم عند أهل اليمين غير الحرية عند أهل اليسار.

الحرية فى النظام الرأسمالى هى أن تفعل ما تشاء ، وتمتلك ما تريد . . إن شئت امتلكت صحيفة ودار نشر ومحطة إذاعة ومجمعاً للحديد والصلب ومنجماً للنحاس وآباراً للبترول ، مادمت تدفع الضريبة وتملك الثمن . . ولكن هذه الحرية سوف تتفاقم آلياً لتصبح احتكاراً يتحكم فى السلعة وفى السعر وفى البورصة ، وبالتالى سوف تسلب الآخرين حرياتهم وتستغلهم وتتحكم فى رقابهم . . ومن رأس المال الذى سوف يتضاعف تلقائياً سوف يصبح فى إمكانك أن تشترى أصوات الناخبين ، وتدخل البرلمان ، وتؤلف حزباً ، وتوجه دفة الحكم لصالحك ، وتثير الحروب لتشغيل مصانعك ولترويج ما تنتج من بنادق ودبابات ، وبالتالى سوف تزداد الرقعة التى تتحكم فيها فى رقاب الآخرين ، وسوف تتضاعف قدرتك على سلب الحريات ، لتتحول فى النهاية إلى استعمار وإلى تدمير وتخريب وقتل تصدره إلى الخارج كل يوم . . وحرياتنا فى مقاومتك لن تتجاوز صرخات فى الهواء وقصاصات ورق . . مجرد عواء فى خواء .

وحريتك بهذا المعنى تضمنت عبوديتنا من البداية . . وسوف تنتهى إلى عبوديتك أنت فى النهاية . . عبوديتك لرأس المال الذى وقفت نفسك على خدمته . . وفى النهاية سوف تصبح وقوداً للحرب التى تشعلها .

والحرية بهذا المعنى تناقض نفسها ، فهى تقضى على حرية الآخرين ، وفى النهاية تقضى على حرية صاحبها .

ولهذا رفضنا الحرية بالمعنى الرأسمالى .

فإذا جئنا إلى اليسار فإننا نجد الحرية بالمفهوم الماركسى هى حرية تغيير العالم وإعادة بنائه وفق خطة الحزب . . .وهذا لا يتم إلا بخطوات تأخذ بعضها برقاب بعض . . أولا لابد من تحطيم رأس المال والعلاقات الرأسمالية التى تقوم على الاحتكار والاستغلال ، وذلك بنزع ملكية المصنع والأرض ووسائل الإنتاج كافة ووسائل الإعلام كافة من صحافة وإذاعة وكتب ، وإدارتها من جهة الحكومة لصالح الشعب العامل . وكمرحلة مؤقتة تتولى الطبقة العاملة بصفتها الطبقة صاحبة المصلحة إعلان الدكتاتورية ، وحينما تنجز دكتاتورية العمال رسالتها ، وتقضى على الطبقة البورجوازية ، وتحقق مجتمعاً لا طبقياً ، تنحل الدكتاتورية من تلقاء نفسها ، بل تنتهى الحكومة ، لأنه لن يعود لها داع ، ويصبح الإنتاج من الكثرة والوفرة بحيث يأخذ كل واحد حسب حاجته ، ويعمل كل واحد حسب طاقته ، فى مجتمع نموذجى تسود فيه الإنسانية وينتهى الطمع . . هكذا كانت أحلام الماركسية . . ولكن الواقع اختلف كثيراً عن الحلم ، ليس فقط بسبب سوء التطبيق ، ولكن بسبب ثغرات فى النظرية ، فالدكتاتورية أتت ومعها مجتمع الخوف . . وجهاز الحزب الذى يتألف من ملايين تحول إلى طبقة جديدة من المنتفعين لها مصلحة فى البقاء مستمتعة بجميع مميزات الحزب ؛ وبحكم إغراء تلك المصلحة أصبح من الممكن أن تخون القاعدة بمثل ما يخونها عضو البرلمان الرأسمالى ، تساعدها الدكتاتورية ومراكز القوة التى تجد نفسها متربعة فيها .

وفى حضور الخوف وغياب المبدأ الدينى تدهورت الأخلاق ، وظهر غول جديد اسمه البيروقراطية ، وأصبحت السلعة التى كان يسرقها رأسمالى واحد يشترك الآن فى سرقتها جيش من الموظفين ، من البائع إلى المتعهد إلى المفتش إلى مدير الجمعية الاستهلاكية ، إلى موظفى الجمعية التعاونية ، وتسربت المكاسب الجديدة من هذا الغربال الملىء بالخروق .

ولجأ النظام إلى فكرة الحوافز والمكافآت لإثارة النفوس التى تكاسلت ،

ولكنه لم يفعل أكثر من الترقيع الخارجي ، فلم تكن الحوافز أكثر من مزيد من الرشاوى . . والرشوة لا تطلق طاقة داخلية أبدًا ، وهي إذا حفزت تحفز إلى طمع من يأخذ وحسد من لا يأخذ ، ونتيجة الإحساسين مزيد من الفشل فى الإنتاج والتحاقد بين الأفراد .

وما هو مفقود فى نظام مادى ليس المادة ولا المكافأة . . ولكن تلك الشرارة الداخلية من الحماس والنشوة التى يطلقها الإيمان والعمل فى حرية ، والفكر بلا قيد ، والحياة بلا تهديد فى كفالة قوانين لا تميز بين حاكم ومحكوم ، وإنما تحمى الكل حماية النواميس الفلكية .

وقد وقع الفكر المادى فى تناقض أساسى بين كونه فكراً يدعو إلى التضحية والبذل من أجل الآخرين وبين كونه فكرًا محروماً من الحافز الدينى والمبدأ الروحى . . والدين كما هو معلوم يمدّ الإنسان بأعظم طاقة ليضحى ويبذل بلا حدود وعن طيب خاطر . . وهكذا أصبح المفكر المادى يطالب بالولاء بالفعل ، ثم يجعله مستحيلا بالفكر والنظرية .

وخطأ الفكر المادى أنه تصور أن ثلاث وجبات دسمة ومصروف يد وكساء ودواء يمكن أن تكون عزاء كافيًا لإنسان يعلم أنه ولد ليموت . . إنسان كتب عليه أن يتألم وحده ، ويمرض وحده ، ويشيخ وحده ، ويموت وحده . . وأن الولاء يمكن أن يشترى بالمرتب والمكافأة إن لم يشتر بالخوف من قطع العيش ، وهذا وهم كبير .

وإنها لكلمة قديمة جدًّا . . « أنه ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان » . . وإننا إذا كنا نولد لنموت يجب على الأقل أن يسمح لنا أن نقول كلمتنا فى حرية قبل أن نموت .

ولا شك أن كارل ماركس قد أقام نظريته من قديم على ظروف القرن التاسع عشر الصناعية المتخلفة ، حيث العامل هو عامل يدوى كادح مطحون

مسحوق لا يكاد يجد لقمته . . ولم يتصور ما ستحدثه ثورة العلم والتكنولوجيا فى القرن العشرين ، حيث العامل هو رجل مرفه يجلس أمام أزرار ، وحيث المصانع تدور آلياً بعقول ألكترونية ، وحيث لا يوجد جيش من العمال المرهقين ، وإنما جيش آخر من الموظفين المرفهين ، ومن ورائهم نقابات عمالية ، وقوانين للتأمين ضد العجز والشيخوخة والمرض ، وفرص للتعليم والعلاج . . لم يتصور مرونة الرأسمالية وقدرتها على التطور نحو عمالة جديدة تشارك بحظوظ وحصص من الأسهم فى رأس المال ، كما حدث فى بعض فروع الصناعة اليابانية والإيطالية والفرنسية والإنجليزية .

والنتيجة هى انفصال الفكر الماركسى عن واقع القرن الذى نعيشه ورجعيته قياساً إلى ظروف عصرنا .

وأخطأت تنبؤات ماركس جميعها التى بناها على منهجه الجدلى .

تنبأ بأن الثورة الشيوعية لن تخرج من مجتمع متخلف ، وإنما من مجتمع صناعى رأسمالى متقدم مثل إنجلترا وألمانيا ، فكذبت نبوءته وخرجت الشيوعية من مجتمع زراعى متخلف مثل الصين .

وتنبأ باتساع شقة الخلاف بين البورجوازية والبروليتاريا فى الدول الرأسمالية بشكل مضطرد إلى أن يتفاقم الوضع إلى ثورة تقلب النظام الرأسمالى كله . . ولكن ما حدث فى المجتمعات الرأسمالية كان العكس ، وهو مزيد من التقارب بين الطبقات ، عقب سلسلة من الإجراءات الإصلاحية والأنشطة النقابية فى حين انطلق الصراع وتفاقم بين دول العالم الاشتراكى نفسه .

وتنبأ ماركس بازدياد تمركز رؤوس الأموال فى احتكارات هائلة يزداد معها غنى الأغنياء وفقر الفقراء ، ولكن الذى حدث كان اتجاهاً إلى تفتيت رؤوس الأموال عن طريق الشركات المساهمة ، وتفتيت الملكيات الزراعية من تلقاء نفسها بالميراث .

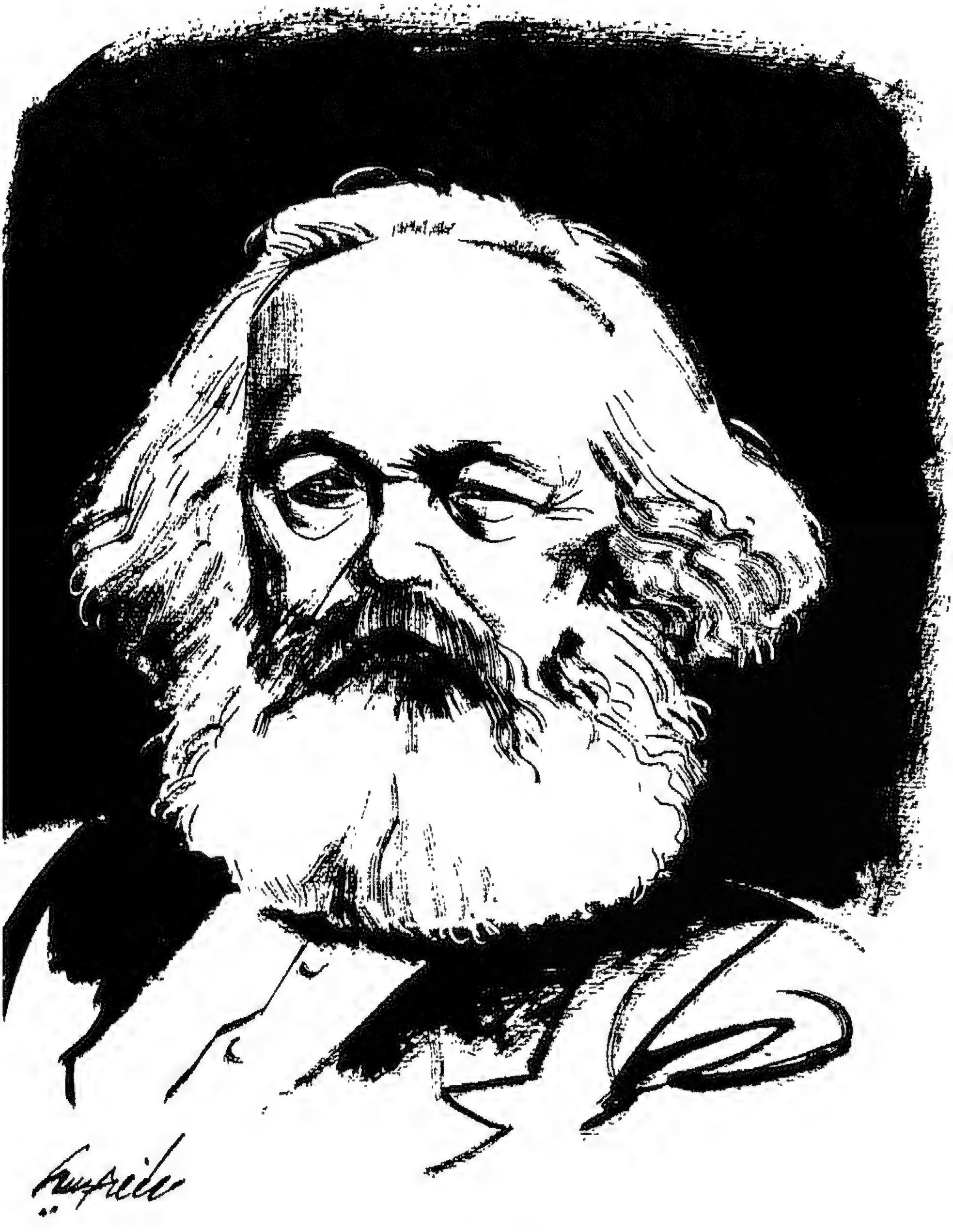

كارل ماركس

وتنبأ ماركس بالأزمة الاقتصادية الماحقة التى تسحق النظام الرأسمالى بسبب ازدياد إجمالى الإنتاج عن معدل الطلب والقدرة الشرائية نتيجة فقر العمال المدقع ، ولكن الملاحظ إلى الآن أن كل أزمات الرأسمالية ذات طابع عرضى ، وبناء على نظرية ماركس فى فائض القيمة يتحدد أجر العامل فى الدولة الرأسمالية على أساس الحد الأدنى اللازم لمعيشته . . ولكن الواقع كذب هذه التقديرات بفضل التشريعات الجديدة ونشاط النقابات والتعديلات التى أدخلها النظام الرأسمالى على نفسه فارتفع أجر العامل فى دول أوربية كثيرة إلى مستوى رخاء ملحوظ .

وربما كانت أكبر أخطاء الماركسية هى إصرارها على أن تكون فكرًا شموليًّا يجاوب عن كل شىء ، ويبتكر الحل لكل شىء ، ويفتح كل باب ويجاوب عن كل سؤال .

ومن لا يأخذ بهذه الشمولية لا يكون ماركسيًّا ، بل إن الماركسية تعتبر ألد أعدائها من يجزئها ، ومن يقف منها موقف انتقاء واختيار ، يأخذ شيئاً ويرفض آخر . هذا التعسف كان أضعف ما فى الفكر الماركسى .

يقابل ذلك مرونة فكرية ملحوظة فى الدول الرأسمالية وقدرة على استيعاب فكر الخصوم والاستفادة منه دون تحجر أو تعصب مذهبى .

وأكثر من دولة رأسمالية أخذت بنظام تأميم صناعة الصلب ، أو تأميم المصارف ، كمحاولة للتغلب على طاغوت المستغلين والمحتكرين .

وفى الجانب الآخر نرى أنه برغم المذهبية المتعصبة لم تطبق الماركسية بشمولها حتى فى روسيا نفسها .

وكانت الماركسية بشمولها دائماً محل رفض عند التطبيق حتى فى بلادها وبين أهلها .

والسبب هو ضعف أصيل فى النظرية الماركسية نفسها . . أسمّيه التعسف المنهجى .

ويبدو هذا التعسف المنهجى فى « المادية التاريخية » التى يدور الجدل فيها على فكرة العامل الاقتصادى الواحد الذى يجعل منه ماركس سبباً تتداعى من ورائه النتائج المختلفة .

ولم تعد هذه الفكرة مقبولة علمياًّ ، والرأى السائد الآن أنه فى ميدان الظواهر الاجتماعية لا يوجد سبب مستقل منفصل وفاعل يولد النتائج والظواهر الثانوية ، وإنما هناك عوامل متعددة تؤثر فى بعضها تأثيرات متقابلة . . فالعامل الجوهرى اليوم يمكن أن يصبح عاملا ثانوياًّ فى الغد .

والعامل الاقتصادى بهذا لا يصلح لأن يكون إلـٰها تصدر عنه كل الأشياء . . وإنما هناك العامل القومى والنفسى والعنصرى والعقائدى ، يمكن أن تشكل التاريخ بأقوى مما يشكله العامل الاقتصادى . . وبين الصين وروسيا صراع سوف يشكل التاريخ ، ومع ذلك فهو ليس صراعاً طبقياًّ ولا اقتصادياًّ ، فالدولتان كلتاهما بقيادة البروليتاريا .

ولم يستدل ماركس على نظريته بالتاريخ كله ، وإنما ببعض مراحل تاريخية انتقاها ، فلا تصبح للقوانين التى استخرجها صفة الإطلاق على التاريخ كله . . ولا تصدق عليها صفة القوانين ، وإنما هى على الأكثر ترجيحات يجوز عليها الخطأ والصواب . . وتفسيره المادى للتاريخ بأن أساليب الإنتاج وعلاقات الإنتاج كانت دائماً السبب الذى يشكل البنيان الفوقى الاجتماعى بما فيه من فن وفكر ودين — هذا التفسير كان تبسيطاً ساذجاً لعمليات متداخلة وشديدة التعقيد . وأحدث النظريات اليوم تقول بالعوامل المتعددة التى تتبادل التأثير فيما بينها reciprocal causality كل عامل يكون سبباً ونتيجة فى الوقت نفسه ، فالفكر والاختراع يمكن فى لحظة أن يقلب وسائل الإنتاج وعلاقات الإنتاج بأكثر

مما تستطيع تلك العلاقات أن تنتج فكراً . . والدين يغير العلاقات الاجتماعية في حين تعجز تلك العلاقات الاجتماعية أن تصنع ديناً .

وأقوى البراهين على ذلك هى نشأة الإسلام ، فلم يكن الإسلام قطّ من إفراز النظام الطبقى فى قريش ، ولم يكن دينًا رجعيًّا يحفظ للظالمين المستبدين أموالهم وممتلكاتهم ، ولم يكن مخدراً للفقراء دافعاً لهم على قبول فقرهم . . فقد دعا الإسلام إلى التمتع بالحياة فى اعتدال ، ودعا إلى قتال الظالمين والمستغلين .

ولم يأت الإسلام نتيجة انقلاب فى نظام الإنتاج وعلاقات الإنتاج فى قريش . وإنما جاء كظاهرة فوقية مستقلة عن فعل البيئة .

فقد جاء الإسلام من البداية مقررًا المساواة فى الفرص ، وضمان حد الكفاية للمواطن ، وتحقيق التوازن الاقتصادى بين الفرد والمجتمع ؛ وجاء بمبدأ الملكية الخاصة والملكية العامة ومبدأ الاقتصاد الحر الموجه . . جاء بكل ذلك فى الجزيرة العربية ، فى وقت لم تكن ظروف الإنتاج وعلاقات الإنتاج تدعو إليه ، بحيث يمكن أن نقول إن ما حدث كان انبثاقاً من واقع اقتصادى . . وتحدَّى بذلك منطق الماركسية التاريخى وحساباتها المادية التى تحتم انبثاق كل انقلاب سياسى من انقلاب مناظر فى نظام الإنتاج وعلاقاته .

وقد كان ماركس مبالغاً أشد المبالغة فى تلك الهالة الأسطورية التى أضفاها على البروليتاريا (الطبقة العاملة) فى كلامه عن نقاء البروليتاريا وطهارة البروليتاريا ، وكأنها شعب الله المختار ، أوجنس آخر قادم من المريخ .

وها نحن أولاء نرى أمامنا الآن الطبقة العاملة نفسها تنشق إلى طبقتين متناقضتين نتيجة تفاوت الدخول ، هما العمال المؤهلون والعمال غير المؤهلين تنتج عنها فئة أرستقراطية وفئة شعبية من العمال أنفسهم .

وقد كان من تأثير هذه الشواهد الكثيرة ، والثغرات الواضحة فى مجال

النظرية والتطبيق ، أن انصرف عن الماركسية كثير من الأقلام التى كانت تؤيدها ، واتخذت منها موقف النقد والمعارضة ، أمثال أندريه جيد وبرتراند راسل واجنازيو سيلونى وريتشارد رايت (الكاتب الزنجى) وآرثر كوستلر (المجرى) وستيفن سبندر (الإنجليزى) ولويس فيشر (الأمريكى) وريتشارد كروسمان .

وسمعنا عن مفكر اشتراكى مثل هنرى دومان يدعو للعودة إلى الدين كمنبع للاشتراكية .

ونحن هنا نقول إننا لسنا يميناً رأسماليًّا ولسنا أيضاً يساراً ماركسيًّا ، ولا يعنى هذا أننا متوسط حسابى بين الشيوعية والرأسمالية . . وإنما نحن فى فكرنا السياسى أصحاب عطاء خاص ، وأصحاب اجتهاد ذاتى ، فنحن رفضنا دكتاتورية الطبقة العاملة واستبدلنا بها تحالف قوى الشعب العامل بكل قطاعاته وطبقاته . . ونحن لم ننظر إلى الدين كعقبة ، وإنما – على العكس – نظرنا إليه كقوة دافعة وطاقة بناءة وفكر تقدمى أكثر تقدمية من كل النظريات المتداولة .

ولم يكن ضعفاً فى القرآن أنه لم يحدد منهجًا سياسيًّا ، ولم يرسم دستوراً محددًا ، وإنما كان ذلك أحد أدلة قوته وإعجازه . . فقد أراد الله أن يفتح سبيل الاجتهاد والأخذ بالعلوم واستنباط المناهج والأحكام من الظروف المتغيرة دون تكبيل بمنهج سماوى جامد محدد ، واكتفى القرآن فى موضوع السياسة والحكم بإصدار توصيات عامة لها صفة الأزلية وعدم التغير عبر العصور . . وقال إن هذه التوصيات يكون بها الحكم مثاليًّا .

ماذا كانت تلك التوصيات . .

أولا – حرية الفرد وكرامته وأمنه .

والفرد فى الإسلام هو أمة ، بل عالم بأسره ، بل الإنسانية كلها فى قيمته . . تقول الآية :

من قتل نفسا بغير نفس أو فساد فى الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً » (٣٢ - المائدة) إلى هذه الدرجة تبلغ قيمة الفرد وقيمة كرامته وأمنه . إن جميع الإنجازات الصناعية والتكنولوجية لا تعدل قتل فرد واحد ظلماً فى السجون . . لأنك إذا قتلت هذا الواحد ظلماً فقد قتلت الإنسانية كلها وهدمت الناموس . ويقول الإنجيل فى هذه النفس الإنسانية إنها « أثمن من ممالك الأرض طرًّا » .

فشرط الحكم الأمثل أن يحترم حرية الفرد وأمنه وسلامته ، وألا يضحى به من أجل أى إصلاح مادى مهما بلغ ذلك الإصلاح .

أما الشرط الثانى — فهو العدالة الاجتماعية . والقرآن تناول العدالة الاجتماعية فى أكثر من سورة ، وهو يأمر صراحة بألا تحتكر الأموال بين أيدى القلة : « **كى لا يكون دولة بين الأغنياء منكم** » (٧ — الحشر) .

« **والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم** » (٣٤ — التوبة) .

والإنفاق يبدأ من ضريبة إجبارية ٢$\frac{1}{2}$ فى المائة هى الزكاة ، ثم يتصاعد اختياراً إلى أن يصل إلى أكثر من ٩٩ فى المائة ، فيأمر الصالحين بأن يأخذوا كفافهم وينفقوا كل ما زاد على حاجتهم .

« **يسألونك ماذا ينفقون قل العفو** » (٢١٩ — البقرة) . والعفو هو كل ما زاد على الحاجة .

وإذا بات فرد واحد جائعاً فالأمة كلها مسئولة .

ويمتاز هذا التشريع بالجمع بين ركن التكليف القانونى وركن الضمير ، فهو يطلب ٢$\frac{1}{2}$ فى المائة من دخلك جبراً ، ويطلب ٩٩ فى المائة من ثروتك اختياراً وتبرعاً . وفى ذلك احترام لفردية الإنسان واختياره . . ومعلوم أن الإنفاق

الاختيارى أكثر دلالة على الكرامة من الإنفاق الجبرى .

وقد نصّ الإسلام على الملكية الفردية ، وأباحها لحكمة عميقة ، هى أن مصادرة الملكية الفردية تصادر فى الوقت نفسه الدرع والسند الذى يستند إليه الفـرد ، ليواجه السلطة الغاشمة وينتقدها ، فهى الشكل الخارجى للكرامة والأمان . . وحينما تصادر السلطة الملكية الفردية ، وتحوّل الناس إلى أجراء ، وتجعل أرزاقهم وأقواتهم فى يدها ، فإنها تحولهم بجرة قلم إلى قطيع يستحيل على واحد منهم أن يكون له رأى مخالف .

ومع ذلك لم يطلق الإسلام الحرية للكسب الفردى بدون ضوابط وحدود ، وإنما للفرد أن يأخذ بعض ما يكسب : « **للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن** » (٣٢ – النساء) .

والبعض الآخر من ذلك المكسب هو حق الله ينفقه الحاكم ليحقق الضمان الاجتماعى للفقير والمريض والعاجز والأرملة ، ولينفق منه على التعمير والإصلاح والقيام بالمشروعات النافعة للمواطن .

وسبق الإسلام بمبدأ الضمان الجماعى (دون تفرقة فى الدين جميع تشريعات زمانه . . وقد فرض عمر بن الخطاب للمولود مائة درهم ، فإذا ترعرع زاده إلى مائتين ، كما فرض مخصصات ضمان لليهودى الأعمى وللمجذومين من النصارى ، وخصص حبوساً للإنفاق على ضعاف الحيوان وإيوائها وحمايتها .

وللحاكم فى أموال الأغنياء حقوق غير الزكاة ، ليسد الذرائع ، فله أن يأخذ الضرائب الإضافية والاستقطاعات فى حالات الوباء والمجاعة والحروب .

وحرمة الفرد وحرمة بيته وحرمة أسراره حافظ عليها الإسلام أكثر مما حافظ عليها ميثاق حقوق الإنسان ، فنهى عن التجسس وعن دخول البيوت بدون

إذن واقتحام المساكن عنوة .

أما الشرط الثالث – فى الحاكم الأمثل – فهو الشورى ، والشورى تكون من الحاكم للصفوة من أهل الرأى . . لا ينفرد بالسلطة ولا يتجبر .

والله يقول للنبي محمد عليه الصلاة والسلام :

« **ما أنت عليهم بجبار** » (٤٥ – ق) ، « **فذكر إنما أنت مذكر لست عليهم بمسيطر** » (٢١ – الغاشية) .

وهو محمد النبي المعصوم صاحب اللياقات الكاملة .

« **إنما المؤمنون إخوة** » (١٠ – الحجرات) .

« **كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته** » (حديث شريف) .

« **لا يتخذ بعضنا بعضاً أربابا من دون الله** » (٦٤ – آل عمران) .

« **وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه** » (٢٣ – الإسراء) .

نهى الإسلام عن عبادة الحاكم وتأليه العظيم .

والحكم فى الإسلام للصفوة والنخبة المختارة ، ولا يصح تحكيم الطغاة والدهماء والسوقة فى مقاليد السياسة والفكر . . لأن :

« **أكثر الناس لا يعلمون** » (٢١ – يوسف) .

« **بل أكثرهم لا يعقلون** » (٦٣ – العنكبوت) .

« **أكثر الناس لا يؤمنون** » (٥٩ – غافر) .

« **وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين** » (١٠٣ – يوسف) .

« **إن يتبعون إلا الظن** » (٦٦ – يونس) .

« **وإن هم إلا يخرصون** (يكذبون) » (٦٦ – يونس) .

« **إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل** » (٤٤ – الفرقان) .

نهى الإسلام عن الغوغائية والديماجوجية ، وأوصى بتسليم مقاليد الأمور للصفوة المنتخبة لأن الكثرة دائماً على ضلال . . فالعوام ينتخبون حكامهم ولكن لا يحكمون . . لأن الدهماء إذا حكموا حكمت الشهوات والأهواء .

كما نهى الإسلام عن العنصرية ، ونهى عن احترام الناس على مقتضى غناهم وطبقاتهم .

« **إن أكرمكم عند الله أتقاكم** » (١٣ – الحجرات) .

« **لا فضل لعربى على أعجمى إلا بالتقوى** » (حديث شريف) .

« **هو الذى خلقكم من نفس واحدة** » (١٨٩ – الأعراف) .

وهذه الوصايا تمثل الذروة فى الحكم والسياسة والتعامل. . وهى تقدم الخصائص الأزلية للحكم الأمثل التى لا تتغير بتغير الظروف والأحوال .

ولهذا كله نعتبر أن ديننا طاقة وقوة دافعة للتقدم . . وأنه سبق كل ما وضع من نظريات فى السياسة . .

والدين الإسلامى هو التركيب الجدلى الجامع بين النقيضين : المادية اليهودية والروحانية المسيحية ، فى وسط معتدل يقيم الضوابط على الغرائز والشهوات دون أن يطالبك بقتلها ويبيح المتع دون إسراف .

« **وكذلك جعلناكم أمة وسطاً** » (١٤٣ – البقرة) .

ولهذا كان دين التوحيد بحق . . التوحيد بين الروح والجسد ، والتوحيد بين جميع الرسل فى رسالة واحدة . . والتوحيد لجميع القوى الغيبية فى إله واحد .

ولهذا نحرص عليه ونستلهم آياته ، ونعتبره ركناً أساسيًّا فى دولة العلم والإيمان ، ونرى فيه نبع علم لا ينفد ، ومصدر هدى وبصيرة وحكمة ، وشرطاً فى بناء الإنسان السوىّ المكتمل .

وهذا يجعل من موقفنا السياسى موقفاً إبداعيًّا انتقائيًّا . . نبنى عشّنا السياسى كما تبنى الطيور أعشاشها ، فننتقى ما يلائمنا ، ونأخذ من كل شجرة ما يصلح لنا من فروع وأغصان .

وليس هذا هو الترقيع الفكرى . . فإن ما نفعله هو عملية هضم وتمثيل لهذه العناصر المنتقاة تمامًا ، كما تفعل المعدة حينما تهضم طعامًا من عدة عناصر من عدة أشجار ، ثم تسلمه للكبد يمثله ويقدمه للجسد غذاء ومواد بنائية من نوع الجسد نفسه ، لنخرج فى النهاية بإبداع فكر سياسى جديد يجمع بين تراثنا العظيم وبين صفوة العلوم الموجودة . .فكر يجمع بين الأصالة والمعاصرة .

لا يمين ولا يسار . .وإنما صراط الاعتدال الذى نسميه الصراط المستقيم . . من خرج عنه باليمين فقد انحرف ، ومن خرج عنه باليسار فقد انحرف . . فليس على يمين الحق ولا على يساره إلا الباطل .

والصراط المستقيم ليس هو الوسط الحسابى بين ايمين واليسار ، وإنما هو الوسط الجدلى ، هو التركيب الجامع الذى يوفق بين النقيضين ثم يتجاوزهما فى وحدة غنية خصبة جامعة .

« **ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملومًا محسوراً** » (٢٩ – الإسراء) .

« **والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواماً** » (٦٧ – الفرقان) .

فالصراط المستقيم هو إذن تركيب بين نقيضين ، بين البخل والإسراف يكون صراط الاعتدال هو الكرم ، وبين الجبن والتهور هو الشجاعة ، وبين

اليمين (طغيان مصلحة الفرد) وبين اليسار (طغيان مصلحة الجماعة) يكون المنهج الإسلامى هو التوازن الدقيق بين مصلحة الفرد ومصلحة المجموع ، دون أن تطغى واحدة على الأخرى ، فلا رأسمالية ولا شيوعية وإنما نظام إبداعى ، يأخذ من الفرد دون أن يطحنه ، ويعطى المجتمع دون أن يجعل منه سلطة تذويب للأفراد ، فهو تركيب جدلى بين النقيضين يجمع بين حسنات النظامين ، ثم يضيف إليهما نعمة الإشباع الروحى .

ونجد فى الإسلام التركيب الجدلى الذى جمع بين عدل اليهودية الصارم : (العين بالعين والسن بالسن) وبين تسامح المسيحية المفرط : (من ضربك على خدك الأيمن فأدر له الأيسر) ، فنجد الإسلام يعطيك حق رد العدوان بمثله ، ولكنه فى الوقت نفسه يفضل العفو والصبر (فمن عفا وأصلح فأجره على الله) ، فهو يجمع بين عدل اليهودية ومحبة المسيحية فى وشيجة الرحمة . . وهذا هو النظام الإبداعى الذى نسميه الصراط الذى يرفض اليمين كما يرفض اليسار معاً ، ويقيم تركيباً سلوكيًّا فذًّا . . هو صراط الله الحق .

المـــادة والـــرّوح

لمن تكون الكلمة العليا ؟ !

أتكون للمادة والظروف المادية والواقع الكثيف حولنا .

أم للفكر والعقل والإرادة الإنسانية والكيان اللطيف بداخلنا الذى نسميه الروح .

فيما يبدو للنظرة السطحية أن البيئة المادية والظروف الاجتماعية والوراثية والحالة المالية من فقر وغنى وجوع وشبع هى التي لها السيادة وهى التى تقود وهى التى توجه السلوك وتصنع الوجدان وتحفز المشاعر وتوقظ العقل من رقاده .

ضغط البيئة .

ضغط الحاجة .

ضغط الفقر والحرمان .

هى دائماً الحوافز الأولى التى يصحو عليها الشعور . . وفى حالة استسلام الإرادة وسلبية العقل . . تكون لها السيادة . . ومن هنا يأتى الحكم المتسرع القائل بأن المادة هى التى لها اليد العليا على الفكر وأنها هى الأقوى فى ميزان التأثير وأنها هى التى تصنع للإنسان عقله . . وأن هذا قانون يصدق فى الأفراد

ويصدق على الأمم ويصدق على التاريخ كله بطول الزمان .

وهو كلام صحيح فى حالة واحدة . . هى حالة اختيار الفرد أو الجماعة لطريق الاستسلام والسلبية والخضوع لغرائز البطن والمصالح العاجلة فتتحول بذلك الكتلة الإنسانية إلى عجينة طيعة تشكلها الظروف المادية .

ولأن المسلك السلبى هو المسلك الشائع والمسلك الغالب للأكثرية لأنه لا يكلف طاقة أو مجازفة . . كثرت النماذج التى يمكن أن نأخذها من حياة الأمم فى التاريخ . . التى تؤيد وجهة النظر القائلة بسيطرة المادة فأكثر الناس عبيد لشهواتهم ومصالحهم .

لكن الكثرة لا تعنى أبداً الإطلاق ولا تعنى أبداً الحتمية التاريخية .

وهنا الخيط الرفيع بين الحق والباطل .

فالقائلون بالحتمية المادية لحركة التاريخ لم يأخذوا التاريخ كله كنموذج ليستنبطوا منه قانون حركته وإنما اختاروا بضع مراحل وفقرات هى التى وجدوا فيها مصداق كلامهم وأغفلوا الباقى . . وما كان لأحد أن يحيط بالتاريخ كله ولو أراد ، وما وصلنا من التاريخ أكثره كذب واختلاق ومبالغات والمفقود منه أكثر من الموجود . . وكمثل قريب نجد أن تاريخ أسرة محمد على قرأناه على أيام الملك فاروق بصورة ثم قرأناه بعد ثورة ٢٣ يوليو بصورة أخرى . . والحادث يحدث تحت شباك الواحد منا فيرويه الشهود بروايات مختلفة مع أنهم جميعاً شهود عيان ومع أن الحادث حدث بالأمس ومنذ ساعات فما بال تاريخ حدث على بعد خمسة آلاف سنة وتضارب فيه المفسرون والرواة .

إن المادة التاريخية مادة خادعة وهى بطبيعتها متعددة المصادر ومتناقضة ومتضاربة ولا يمكن استيفاؤها كلها ولا جمعها كلها بيقين كاف يدعو فيلسوف التاريخ إلى القول بحتمية نظرياته أو بأنه استنبط منها قانوناً مطلقاً . . والقول بهذا الكلام هو السذاجة بعينها .

ولكن النظرة الموضوعية العلمية والأمينة لا تقول بأكثر من الترجيح والاحتمال فى أمثال هذه المسائل . . فالقوانين الإحصائية كلها قوانين احتمالية وكلها ترجيحات لا يرتفع أحدها إلى مرتبة الحتمية أو الإطلاق . ومن هنا تكون كلمة « الحتمية التاريخية » أو « حتمية الصراع الطبقى » كلمات غير علمية .

ثم إن الإنسانيات لا تجوز فيها الحتمية . . لأن الناس ليسوا كرات بلياردو تتحرك بحتمية قوانين فيزيائية . . ولكنها مجموعة إرادات حرة تدخل فى علاقات معقدة يستحيل فيها التنبؤ بناء على قوانين مادية وأصدق مثل على كذب دعوى الحتمية الطبقية ما رأيناه فى حالات متكررة .

فقد رأينا الإقطاعى ابن الإقطاعى تولستوى يتصرف بعقلية بروليتارية فيوزع أرضه على الفلاحين . . أين ذهبت الحتمية هنا . . ولماذا لم يتصرف بمقتضى طبقته وبالمثل الفوضوى كروبتكين .

بل وكارل ماركس نفسه ابن الطبقة البورجوازية الذى ثار على البورجوازية .

نحن هنا نفاجأ بالعقل وقد رفض أن يأخذ شكل ظروفه وبيئته . . بل ثار عليها ونهض لتغييرها .

وفى الجانب الآخر نعثر على أمثلة كثيرة للفلاح والعامل الذى يتصرف بعقلية مضادة لمصالح طبقته . . . مثل الفلاح الذى يهمل تنقية الدودة فى مزرعته التعاونية . . والعامل الذى يهمل صيانة الأتوبيس فى قطاع عام .

والوعى وعدم الوعى هنا لا يصلحان كتفسير . . بل هما على العكس يردان المشكلة كلها إلى أصولها الأولى ويقلبان النظرية المادية إلى ضدها . . فالعقل لا تغلبه الظروف المادية إلا فى حالة استسلامه وسلبيته وخضوعه الاختيارى وعدم وعيه . . أما إذا وعى وفهم وأدرك واتخذ موقفاً إيجابيًّا من الظروف المادية فإنه يعلو عليها ويغيرها . . وهذا يقلب هرم الفكر المادى على رأسه . . فالإرادة البشرية مؤهلة بفطرتها للسيادة على المادة وقيادتها وتغييرها والتحكم فيها وليس

العكس . . وإنما تنازل الإنسان عن حقه الطبيعي فى الاختيار وإيثاره للسلبية والأمان وعدم المجازفة والجبن هو الذى يؤدى به إلى هذه الحتمية المادية الخادعة الكاذبة التى استمد منها المفكرون الماديون نظرياتهم .

العقل أمير على الجسد إذا لجأت إليه واستنهضته وسلمته الزمام .

أما إذا أهملته وأغفلته ولم تسمع لمشورته فأنت بهيمة وجسدك هو الذى يقودك . . وغرائزك هى التى تحكمك . . ولكن هل يعنى هذا أن الغرائز لها سيادة حتمية على السلوك . . أبداً . . غير صحيح . . هذا أمر لا يصدق إلا عند البهائم وعند نظرية بدائية مثل نظرية فرويد انتهى أمرها .

وليست مصادفة أن فرويد القائل ببهيمية الإنسان وماركس القائل ببهيمية التاريخ كلاهما من أصل يهودى . . وكلاهما أوقعانا فى تبسيط ساذج أحدهما لخص الإنسان فى حافز جنسى والآخر لخص التاريخ فى عامل اقتصادى . . وهذا التبسيط المخل لحقائق هى بطبيعتها شديدة التعقيد والتداخل . أضل الفكر ولم يهده .

وإذا كان لا بد من قانون عام يهدى الفكر فى هذه المتاهات فليس أمامنا إلا القانون الأزلى (الدين) الذى أثبت صدقه المطلق فى تفسير الإنسان كفرد وأمة وتاريخ ، والذى فهم الإنسان جسداً وغريزة وعاطفة وعقلاً .

والوجود فى هذا القانون الأزلى سلم تصاعدى من المراتب يبدأ من المادة فى أشد حالاتها هبوطاً وكثافة — وهى الأرض . . الطين . . ثم الوجود النباتى ثم الوجود الحيوانى ثم الوجود الإنسانى . . وهكذا من الأكثف إلى الألطف . ونرى أن اللطائف تحكم الكثائف وتتصرف فيها . . فالنبات له سلطة فسيولوجية على الأرض يتصرف فيها ويبدل ويغير فى مكوناتها لصالحه . . ثم الحيوان يأكل النبات ويتصرف فيه بالتبديل والتغيير لصالح جسده الحيوانى . . والإنسان وهو ألطف الموجودات الحية وأقلها غلظة هو الحاكم الأعلى على مملكة الحيوان

فهو يروض الوحش ويركب الحصان ويقود الفيل وهو يذبح ما شاء من الحيوان ويأكله ويحول لحمه إلى طاقة يستفيد بها . . ثم إذا جئنا للإنسان نفسه نجد أنه يتكون من جسد هو أكثف مكوناته وأن هذا الجسد تحكمه غريزة ألطف والغريزة تحكمها عاطفة أكثر لطفاً فيمكن أن تشتعل الشهوة فى رجل ثم تطفئها رائحة كريهة أو حالة نفور أو كراهية واشمئزاز . . ثم نجد أن العاطفة بدورها يحكمها العقل وهو الوجود الأكثر لطفاً . والعقل عند أهل البصائر تحكمه البصيرة وتقوده – وهكذا نجد أن اللطائف تحكم الكثائف فى هذا السلم التصاعدى الذى أدناه المادة العمياء وأعلاه الروح . . فالروح لها سبق الأمر ومطلق الحكم على المادة وليس العكس . . وإذا كنا نرى ما يخالف هذه الشواهد فى إنسان غافل سلبى اختار حياة البهيمة وركن إليها فمثل هذا الإنسان الذى تحكمه معدته لا يصلح قانوناً لحركة التاريخ المثلى حتى ولو كان هذا النموذج الإنسانى هو الأغلبية . . فأغلبية العميان ولو كانوا عدة ملايين يمكن أن يقودهم بصير واحد ولا تجدى تلك الأغلبية فى غلبة هذا البصير الواحد ولا تعدله .

فنحن أمام سلم تفاضلى متعدد الدرجات والمراتب يكشف عن ذاته فى كل سلوك مادى ونباتى وحيوانى وإنسانى واجتماعى .

ولا يصح أن نفهم كلمة « روح » فهما اصطلاحياً مفرغاً من المعنى . . وإنما كلمة روح عندنا لا تفهم إلا على معنى « الإصرار والإرادة والاقتناع بالحق والموت فى سبيله » . فالمسلم بالاسم الذى يتعاطى الحشيش ويعيش لمعدته ولذته الحسية لا تتحرك فيه نخوة لوطن أو حماسة لحق أو نجدة لمظلوم لا يحق له أن يدعى أنه من أهل الروح أو أن عنده ذرة من هذه الروح النبيلة التى نتكلم عنها – وهو ليس مسلماً على الإطلاق وإنما هو حيوان ينتسب إلى حضيض الحتميات المادية وأن وضع على رأسه يافطة الدين . بينما المناضل الفيتنامى الذى يموت فى سبيل قضية عدل وحق وشرف . هذا المناضل الهزيل الضئيل الفقير المريض بفقر الدم الذى يهزم العملاق المادى الأمريكى . هو

عندنا مثل للروح التى تهزم المادة وتخضعها .

والمتصوف المسلم يفهم القضية فهماً رحباً عميقاً فيقول لك : ما من الله بد . أنت ساجد لله دون أن تدرى طوعاً أوكرهاً . لو عشقت الجمال فأنت ساجد لله . فالله هو الجمال . ولو أحببت الحق فهو الحق . ولو أحببت العدل فهو العدل . فكل هذه أسماؤه . والعالم كله تجلياته . فأينما توجهت فثم وجه الله . وكل فضيلة المتدين أنه يعبد الله اختياراً عن وعى وإدراك ومعرفة لا عن عمى . . ولكن كل عباد الحق هم عباد الله شاءوا أم رفضوا .

فالمناضل الفيتنامى يعبد الله تحت راية خطأ . . والهرم فى رأسه مقلوب . والمسلم الجبان السلبى الكسول كافر وإن رفع راية الإيمان الصحيحة . . والهرم فى سلوكه مقلوب .

وقديماً قال سقراط « اعرف نفسك » .

واعتبر سقراط هذا الهدف هو غاية ما يحلم به فيلسوف لأنه أدرك أنه هدف صعب وبعيد . . ولا يصل إليه إلا فيلسوف ملهم .

وما أكثر الذين يطلقون الرصاص ويموتون دون أن يعرف الواحد منهم حقيقة هدفه وحقيقة انتمائه .

وما أكثر من حاربوا للغنيمة وللهدف المادى من المسلمين الأوائل ممن تصوروا أنهم حاربوا وماتوا للحق ولوجه الله . . وما أكثر من يحاربون ويموتون لوجه الحق اليوم ممن يتصورون أنهم يحاربون تحت راية فكر مادى ملحد .

والتباس الأهداف والوسائل هو القاعدة وليس الاستثناء .

ولكن القاعدة الوحيدة التى ليس لها استثناء . . هى أن الروح لها السبق فى الوجود والحاكمية على كل صنوف المادة . . وأن الهرم مقلوب عند ماركس وليس معتدلاً كما يتصور نقاد الفكر المادى .

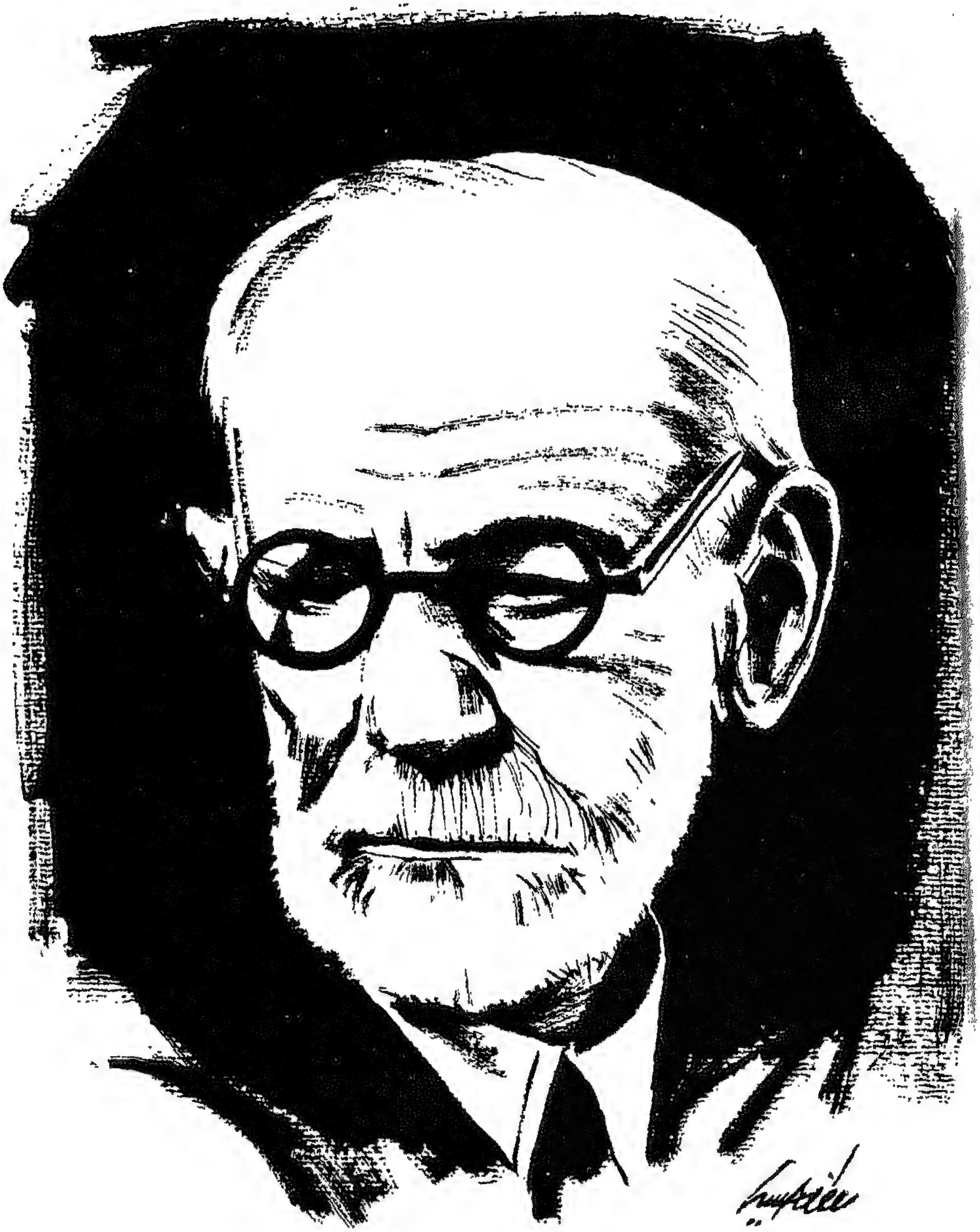

فروید

وإذا كانت المادية الجدلية تقول بسبق المادة على العقل وأنه فى البدء كانت المادة ثم تطورت بالقوانين الجدلية الباطنة فيها إلى حياة نباتية ثم حياة حيوانية ثم حياة إنسانية ثم انبثق من الحياة الإنسانية العقل ومن العقل الفن والعلم والدين . . إذا كانت تقول إن الوجود جاء على هذا الترتيب بدءا بالمادة وانتهاء بالعقل . . فإن لنا أن نسأل سؤالاً مشروعاً .

ومن جاء بالمادة .

إن المادة بجميع أشكالها الهندسية وبجميع ذراتها المحكمة الصنع تدل وتشير وتؤكد على أنها جاءت بتصميم عقل سابق وأنه لا بد لها من مهندس ومصمم ومخترع هو عقل كلى سابق على النشأة والخلق .

ثم من وضع القوانين الجدلية فى المادة . . أليس كل قانون محتاجاً إلى مقنن .

وإذا أسقطنا السببية ألا يسقط العلم كله .

والرد التقليدى الذى يقوله الماديون بأن هذا الكلام يلقى بنا إلى غيبيات . . نجاوب عليه نحن أيضاً بجواب مشروع . . فنقول : وهل كلام الماديين عن بدء الوجود إلا الغيبيات بعينها . . ومن كان موجوداً من هؤلاء الفلاسفة عند بدء الخليقة ليقول بيقين المشاهد – أنه فى البدء كانت المادة . . لا أحد . . أن الحكاية كلها رجم بالغيب من أناس يتهموننا نحن بالغيب .

ثم ماذا تعنى المادية الجدلية بكلمة « مادة » ؟

الكلمة ذاتها تجريد . فهم لا يعنون بها النحاس أو الحديد . . وإنما هم يعنون كل ما هو موضوعى خارج عن الحواس وعن الذات المشاهدة .

ومعنى ذلك أن المادة قديمة وأن الذات محدثة طارئة وهو تخمين وتخليط مناقض لشعورنا فى الواقع . . فنحن نشعر أن إحساسنا بذواتنا إحساس شاخص ماثل فى الوجدان على الدوام وأن ذاتنا فى حالة حضور ثابت وديمومة وأنها آن

واحد مستمر . بينما نشعر بالعالم المادى حولنا كنبض زمنى زائل من المتغيرات . . ومعنى ذلك أن ذاتنا هى الأصل وهى الجوهر القديم وأن جسمنا وعالمنا المادى هو الأمر المحدث الطارئ .

ثم إن هذه النظرة الماركسية إلى المادة هى تجريد بحت من أناس يعلنون فى كل مناسبة أنهم ضد التجريد .

ومن هنا نرى أن كثيراً من الإكليشيهات التى زينوها لنا على أنها علم ليست من العلم فى شىء أمثال :

العالم يتطور تبعاً لقوانين حركة المادة وهو ليس بحاجة لأى عقل كلى .

ستالين « المادة الجدلية »

الفكر لم يخلق المادة وإنما المادة هى التى أنتجت الفكر .

انجلز (فورباخ ونهاية الفلسفة الألمانية)

العالم أشبه بلوحة بيانية تشرح لنا كيف تتحرك المادة وكيف تفكر المادة .

« لينين »

عقل الإنسان ليس هو الذى يخلق له طراز معيشته وإنما طراز المعيشة هو الذى يخلق للإنسان عقله وفكره .

كارل ماركس (مساهمة فى نقد الاقتصاد السياسى)

الدستور والأخلاق والدين خدعة بورجوازية تتستر من ورائها البورجوازية من أجل مطامعها .

« المانفستو الشيوعى »

إننا لا نؤمن بالله ونحن نعرف كل المعرفة أن أرباب الكنيسة والإقطاعيين والبورجوازيين لا يخاطبوننا باسم الله إلا استغلالاً .

« لينين »

كل هذه العبارات فى التحليل النهائى عبارات غير علمية فقد وجدنا أن العقل والإرادة هى التى تشكل الظروف الحياتية المادية وليس العكس إلا إذا اختار الإنسان أن يعيش سلبيًّا كالبهيمة لا يوظف إرادته فى شيء .

وقد وجدنا أن الكلام عن سبق المادة على الفكر هو نوع من الرجم بالغيب يقوله ناس يدعون أنهم ضد الغيب .

ومثله الكلام عن حركة الكون بالقوانين الباطنة وبدون عقل كلى مهيمن وبدون إله . . هو لون آخر . من الظن والتخمين دون إثبات علمى ودون يقين علمى . والذى يقول إن العلم لا يستطيع أن يثبت وجود الله . . نقول له : ولا يستطيع أن ينفيه .

وإذا كان المفكر العلمى موضوعيًّا فسوف يرجح وجود الله وإن لم يؤكده لأنه لا نظام بلا منظم ولا يمكن للحروف أن تصطف فى قصيدة من تلقاء نفسها بدون عقل كلى يصفها . . وسوف يدله قلبه بعد ذلك على باقى الحقيقة ويؤكد له اليقين . . فالعقل وحده ليس دليلنا على الله وإنما العقل والقلب معاً .

وبالمثل إطلاق القول على الدين بأنه أفيون وبأنه ذريعة استغلال هو خلط بين الدين وبين أدعياء الدين . بين الكنيسة وبين الذين يدجلون باسم الكنيسة . . وهو كلام من قبيل التهييج والتحريض وليس كلاماً علميًّا بالمرة .

وحينما تحاول المادية الجدلية أن تقنعنا بحكاية الكم الذى يتحول إلى كيف فإنها تنحدر إلى كلام شديد السذاجة عن الماء الذى يتحول إلى بخار (وهو كيفية جديدة للماء) « بمجرد التسخين وتصور لنا التسخين بأنه تغير كمى بحت . مع أن ماهية الحرارة فى ذاتها مجهولة ولا نملك عنها إلا بضعة فروض وما تحدثه الحرارة فى جزيئات الماء لا نعرف عنه إلا مجموعة فروض أخرى . . والقول بأن الحرارة تؤدى إلى تعجيل حركة الجزيئات لا يعنى أن الكم تحول إلى كيف لأن الحرارة ذاتها هى إحدى كيفيات الطاقة . . فنحن أمام كيف يؤدى إلى

كيف . حركة تؤدى إلى حركة (والحرارة هى فى تعريفها النهائى حركة) » .

وبالمثل الكلام عن تحول الأكسجين إلى أوزون بمجرد إضافة ذرة من الأكسجين .

وقد تصورت المادية الجدلية أن الفرق بين الأكسجين والأوزون هو مجرد فرق رقمى كمى وهوخطأ علمى . . وليس مجرد كلام غيرعلمى .

وأى طالب مبتدئ فى قسم الكمياء يعرف أن الفرق بين الأوزون والأكسجين ليس مجرد فرق عددى فى الذرات ولكن فرق فى التوليف والتشكيل والنظم والترتيب داخل الجزىء (وكلها أمور كيفية) .

ونحن نعلم أن هنالك آلاف المواد العضوية التى تتألف من نفس العدد من ذرات الكربون والأيدروجين والنتروجين والأكسجين ، ومع ذلك تختلف اختلافاً هائلا فى كيفياتها وخصائصها (دون أى فارق كمى) . . ولمجرد أن الذرات فى كل مرة تلتقى بصورة وهيئة وتشكيل مختلف .

ومادة الأظافر والشعر والريش واللحم كلها بروتينات . . والفرق بين واحدة والثانية هوكيف تضفر الجزئيات وعلى أى صورة .

والصورة والهيئة هى أمور كيفية بحتة وهى من الأسرار المختفية وراء آلاف الأنواع الكيميائية من البروتين .

وعلم الكمياء العضوية هوعلم « هيئة الجزئيات » بالدرجة الأولى ، وفى مثل آخر لخرافة الكم الذى يتحول إلى كيف تقدم لنا الماركسية حكاية سلك البلاتين الذى يتوهج (يتطور فى كيفيته) لمجرد تمرير تيار كهربائى فيه . . وتصور لنا الكهرباء على أنها مجرد كم . . مع أن الكهرباء هى كيفية أخرى من كيفيات الطاقة وكلنا نعرف أن الضوء والحرارة والكهرباء والمغناطيسية كلها كيفيات مختلفة لشىء واحد نسميه الطاقة .

إنها كيفية من كيفيات الطاقة تحدث تغييرا كيفيًّا فى سلك البلاتين .

وما تقوله المادية الجدلية هو خلط ساذج وغير علمى .

وسبب هذا الخلط والتناقض هو إصرار الماركسية على أن تكون شمولية تجاوب على كل شيء وتفتى فى كل مشكلة وتفتح كل باب .

وهو شمول مقصود لهدف هو إفراغ الاتباع تماما من أى رأى مخالف أو وجهة نظر منافسة حتى يتم تعبئتهم الكاملة وحتى يتحول كل واحد منهم إلى طلقة مسدس ليس فى ذهنه شيء سوى أن يثب على الحكم ويقلبه .

لم تكن الماركسية أبدا فلسفة متكاملة . . وإنما كانت منشورا للتحريض وقد كرست كل وسائلها لهذا التحريض فحملت لافتة مكذوبة بادعاء العلم والعلمية والموضوعية لتعبئ بها المثقفين واستخدمت الأسلوب العاطفى لمخاطبة العمال والفلاحين تناديهم بأنهم الطليعة والطبقة المختارة لقيادة التاريخ والشرفاء ورواد المستقبل وأبطال الغد الذين يملكون وحدهم النقاء الثورى ، واعتمدت على أن حافز المصلحة عند هذه الطبقة الفقيرة مضافا إليه مدد السخط والحقد والحسد سوف يزود هذه الكتل البشرية بطاقة الدفع المطلوبة .

أما المثقف فهو واحد من ثلاثة . .

مثقف يعتنق الماركسية بدافع من نزعات مثالية فى تحقيق العدالة ناسيا أن النظرية التى اعتنقها هى ألد أعداء المثالية .

ومثقف يجند نفسه فى المعركة بدافع الانتهازية والوصول السريع محاولا أن يركب الموجة العالية التى أدرك بذكائه أنها سوف تقلب كل شيء .

ومثقف يقبل مترددا بإغراء اللافتة الجذابة التى تتكلم عن النظرة العلمية والفكر الموضوعى فيقرأ المنشورات فى انبهار ثم لا يكتفى بالمنشورات فيغوص فى المراجع الأصلية ليستكمل رحلته . ومثل هذا المثقف سوف يكتشف شيئاً

فشيئاً تهافت الفكر الماركسى وتناقضه ومجافاته للروح العلمية وتعسفه واستخدامه للمكيافليه الفلسفية لهدم الموجود بأى ثمن .

ومثل هذا المثقف هو أول من تدور عليه الدوائر إذا حدث الانقلاب وهو أول من يسجن ويضطهد وتراقب خطواته بتهمة أنه المثقف البورجوازى اللا منتمى الذى يعوق حركة التاريخ ويخون التقدم . إلخ . . إلخ . . وهذا المثقف هو مثل لأزمة الثقافة والمثقفين .

إن الحركة الماركسية التى تأتى على أكتاف المثقفين تتحول لتجعل من المثقفين دائماً وأبداً أول ضحاياها .

هى مجموعة متناقضات وخروق فى ثوب مهلهل اسمه الفكر الماركسى . . يحاول أن يفسر الإنسان والمجتمع والتاريخ والكون والنشأة من وجهة نظر شمولية ثم يعجز عن التفسير ثم يناقض نفسه بنفسه . ثم لا يصل إلى شىء إلا عدة مصطلحات وشعارات مفرغة من المعنى .

ونجاح الفكر الماركسى على خريطة الواقع وانتشاره كاللهب بين ملايين لا يصح أن يؤخذ دليلا على صدقه العلمى . . فقد نجح الفكر الماركسى كتحريض وتحشيد وتعبئة لأنه حرك ثأراً قديما موجودا بالفعل . . ثأراً حمله الأحفاد عن الآباء عن الأجداد فى سنين طويلة من الاستعباد وكانوا يطحنونه تحت أضراسهم فى غل مكبوت حتى وجد من ينظمه فى صفوف ثم يوزع عليه السلاح . . نجحت الفكرة كانتقام من مظالم متراكمة وكتنفيس عن أحقاد مكتومة . . ونجحت كتعبئة اقتصادية . . ونجحت كتقدم مادى تكنولوجى . . ولكن . . ألم تنجح اليابان فى الخروج من دمار القنبلة الذرية ومن الهزيمة الكاملة إلى ذروة القوة الاقتصادية والقيادة التكنولوجية فى العالم بفضل تنظيم رأسمالى يرى الماركسيون أنفسهم أنه تنظيم خاطئ . .

إن نجاح فكرة لا يعنى دائماً صوابها . . فقد تنتشر الأفكار الخاطئة لمجرد

تروتسکی

أنها تلقى ترحيبا من غرائز الناس وأهوائهم (وما أسهل تحريض الجياع على الشبعانين) .

ثم إن لنجاح فى جانب لا يعنى النجاح فى كل جانب .

وقد تنجح النظرية فى بناء مصنع ومع ذلك تفشل فى بناء إنسان .

وقد تنجح النظرية لسلامة بند من بنودها ومع ذلك تفشل ككل وكتصور شمولى وفكر فلسفى . وهذا حال الماركسية فهى فاشلة كفكر شمولى وفلسفة ، ولكنها كبنود وعناصر مصدر إلهام وعطاء وفائدة للمفكر الاقتصادى الذى ينظر إليها نظرة انتقائية نقدية ويحاول أن يأخذ منها ما يفيد ويطرح ما يضر.

ومع ذلك فكم كان مكلفا ذلك النجاح للفكر المادى . . فإن شرارة الصراع الطبقى حيثما انطلقت كانت دائما إيذانا بحالة خطيرة من عمى الألوان فلم يعد الصراع محصوراً بين الإقطاعى والفلاح ولا بين الرأسمالى والعامل . وإنما راح ينتشر كما تنتشر النار فى الهشيم فيتحول إلى منطق يحكم المجتمع كله فإذا بكل من هوأدنى ينظر فى تربص إلى كل من هوأعلى .

وهو بعد أن رأى أباطرة المال وقياصرة الأرض يعرون عن أملاكهم بكل سهولة ويطردون أصبح يشعر بأن هيبة كل كبير قد سقطت نهائيًّا فتحول بغريزته إلى من هو فوقه يحاول أن يسحب منه الكرسى ليقفز مكانه .

وما لبثت الأمة أن تحولت إلى ملايين يطعنون بعضهم بعضا وتمزق المجتمع فى لحظة إلى سكان وأصحاب مساكن . . محررين ورؤساء تحرير . . عساكر وضباط . . موظفين ومديرين . . خدام ومخدومين . . كل مرؤوس ينظر شذراً إلى رئيسه ويتحين الفرصة ليطعنه ويحل محله بحق أو بغير حق ، فإن ما حدث فى القمة قد أعطى المثل للقاعدة .

وما بدا كأنه قانون علمى ما لبث أن تلقفته الغرائز ليتحول إلى حقد . .

مجرد حقد . . ثم ينتشر بلا ضابط ليمتص طاقة الأمة فى حرب داخلية صامتة تستنزف الموارد لآخر مليم فى مكائد ورشاوى وسرقات واختلاسات لا آخر لها . . فقد أصبح ما فى جيب كل واحد حلالا للآخر .

يقول تروتسكى :

إن الفرد مهما طاب عيشه يضمر نزوعا فطريًّا إلى الشكوى من ظروفه والطموح إلى ظروف أكثر مواتاة لأحلامه . وبين الشكوى والطموح وضع نفسى فيه الكثير من كوامن الحقد . . والحقد هو أسهل معاول الصراع الطبقى .

هذا كلام تروتسكى وهو اعتراف صريح بالخلفية السوداء للفكر المادى . . ومن هنا اختلفنا مع الفكر المادى . . ورفضنا الصراع الطبقى كأساس للبناء . . واخترنا تحالف قوى الشعب كأساس لفكرنا السياسى واخترنا الدين حافزاً ومنطلقا ، لأنه نبع محبة وأخوة وتعاون وتراحم ، ولأنه دافع للتضحية والفداء والبذل . . ولا يقوم مجتمع بدون محبة . . ولا تغنى إنجازات مهما عظمت عن المحبة . فالكبارى والجسور والطرق المرصوفة والمصانع والأقمار الصناعية والصواريخ والطائرات والأفران الذرية لا قيمة لها بدون إنسان يديرها للخير والمحبة . . وإلا . . فدمارها محتوم . . والخراب قادم . . مهما ارتقت هذه الأسباب . إذا حكم الوحش وتسلم الحيوان زمام الأمور وجاء جيل من الكذابين الانتهازيين الأفاقين الذين لا تشم أنوفهم إلا رائحة المادة والجنس والدم .

لن يكون أكثر تقدما من يصل قبل الآخر إلى القمر ، ولكن من يعمر قلبه محبة أكثر ورحمة أكثر .

وقد كان هذا رائدنا فى اختيار منهجنا السياسى ومسيرتنا . وقد تطول بذلك المسيرة ويطول المشوار . . ولكن من قال إن الأسرع هو الذى يصل أولا .

ألم يقل الحكيم القديم لسائق العربة .

سر ببطء حتى تصل بسرعة .

زعـيم الثـورة الشـبابيّة

رياح الثورة اتخذت هذه الأيام شكلاً شبابياً طلابياً وأصبح هذا الشكل الطلابى طابعاً مميزاً فى العالم كله وأصبحت الصورة المألوفة على الصفحات الأولى من الجرائد وعلى أغلفة المجلات هى طلبة معتصمون فى حرم الجامعة أو طلبة مضربون أو طلبة يصومون أو طلبة يتظاهرون أو طلبة يهتفون أو طلبة يقذفون كوكتيل مولوتوف .

واتسع نطاق السخط والرفض والتذمر فأصبح احتجاجاً على كل شىء . . على الآباء . . وعلى الحكام . . وعلى النظام الاجتماعى أيا كان هذا النظام الاجتماعى . . وعلى الدين . . وعلى الله تعالى .

وأحياناً على بداهات الواجب والعمل والقيم والنظام والمسئولية .

مجرد رفض غليظ لكل شىء تذرعاً بأى شىء .

وتغيرت صورة السائح الأجنبى العجوز الذى يصحب زوجه العجوز يتوكأ عليها وتتوكأ عليه فى نزهة يتفرجان فيها على الدنيا وينفقان ما جمعاه من ألوف الدولارات قبل أن يولى العمر . . وظهر بدلها أولاد فى سن المراهقة أطلقوا اللحى والسوالف فى جيب كل واحد بضعة فرنكات وفى ذراعه فتاة حافية مثله يتعاشران

بدون زواج وينامان على أى رصيف ويشحذان ثمن البيرة ويبصقان على كل شىء .

واتخذت هذه الثورة شكلاً تضامنياً بين جميع الشباب وانتقلت بالعدوى من بلد إلى بلد . . وكأنما هناك اتفاق مكتوب بين الجميع وعهد وميثاق بأن يدمروا كل شىء .

ومن وراء هذه الثورة تاريخ . . وعقول ماكرة كانت تعمل فى العلن وفى الخفاء زمناً طويلاً وأفكار كانت ترصف الطريق وتمهد السبل لهذا التهديم .

فكر سارتر الذى ظل يبث القلق والغثيان والقىء والعبثية والإحساس بعدم الجدوى وبأن الإنسان ولد ليموت وقذف به فى الكون بلا رعاية وبلا عناية وأن آلامه نكتة سخيفة بلا معنى .

وفكر فرويد الذى صور من الإنسان حيواناً يلهو بأعضائه التناسلية . . ويدور فى فلك غريزته الجنسية . . منذ طفولته وهو يرضع ثدى أمه بلذة جنسية إلى شبابه ورجولته وشيخوخته وهو يحلم ويؤلف ويبدع الفنون والفلسفات وكل هذا فى نظر فرويد مجرد إفرازات جنسية أخرى من نوع آخر متسام . . وعادة سرية من نوع رفيع . . حتى الدين هو اعتذار للأب مما يخفيه العقل الباطن من أحقاد عقدة أوديب . . فالابن الذى كان يشتهى أمه ويريد أن يقتل أباه يحاول أن يخفى هذا العار بأن يخلق لنفسه أباً سماوياً بديلاً يسجد له فى خشوع (وقد نسى فرويد أو تناسى أن الدين كان موجوداً من أيام المشاعية الأولى ومن قبل أن يوجد التحريم بين الأم وابنها ومن قبل أن تظهر العقدة الأوديبية على الإطلاق) .

وهل يمكن أن يقال إن الطفل يرضع ثدى أمه بلذة جنسية . . وهى لذة لا يعرفها إلا بالغ . . ؟

هل هو العلم الذى يتكلم أم التواطؤ العلمى . . أم التعسف . . ثم يأتى ماركس ليحرك التاريخ حول غريزته الاقتصادية . فكل شىء يتحرك بحوافز

سارتر

مادية . . ومن تطور علاقات الإنتاج يخرج الفن والفكر والدين . . وليس وراء المادة سوى المادة . . وليس وراء الموت إلا الموت . . وما الله وجنته إلا أفيون الفقراء والبروليتاريا . . وعلى البروليتاريا أن تكف عن هذا الأفيون . . وتهب من رقادها لتحطم الطبقة البورجوازية وتتسلم زمام القيادة لتحقق الجنة الحقيقية على الأرض . . المجتمع اللاطبقى .

ومن بعد ماركس يقوم اليهودى الرابع (وليست مصادفة أنهم كلهم يهود) هربرت ماركوز الذى اشتهر بأنه زعيم الشباب ليعلن يأسه من الطبقة العاملة ويتهم البروليتاريا بأنها تواطأت مع الرأسمالية فى بلادها ونامت عن رسالتها التاريخية فى مقابل زيادة نصيبها من الأرباح . . وأنها بهذا دخلت شريكاً فى اللعبة وأصبحت منتفعة بالنظام الرأسمالى وبذلك رأت مصلحتها فى الإبقاء عليه .

وهو يتهم الاشتراكية بأنها استبدلت الطاغية القديم الذى كان اسمه رأس المال . . بطاغية جديد اسمه . . التخطيط . . والخطة .

وفى نظر هربرت ماركوز تحولت هذه الخطة إلى شبح وقوة لا معقولة يخضع لها مائتا مليون مواطن خضوعاً أعمى . . الكل تحولوا إلى عبيد « أرقام ومعادلات » يفرزها العقل الإلكترونى اسمها الخطة بمثل ما يحدث فى النظام الرأسمالى من خضوع الملايين لقوة لا معقولة اسمها . . السوق والبورصة ورأس المال .

والنتيجة فى النظامين ظهور مخلوقات إنسانية مسطحة ذات بعد واحد تنفذ ما تمليه عليها ظروف وتقديرات مادية . . وقد انسحق فيها البعد الداخلى البعد الروحى فى الحالين . . العمق النفسى والخصوصية والوجدان الذى يثور ويرفض ويعترض . وهو يتهم الاشتراكية بأنها تسير فى نفس طريق الرأسمالية الأمريكية لخدمة هدف واحد هو وفرة البضائع الاستهلاكية ولتأكيد الصنم الجديد الذى أصبح معبود هذا العصر المادى وهو الفريجيدير والترانزيستور والجوارب النيلون . . . إلخ . إلى آخر قائمة الفاترينة الاستهلاكية البراقة . . وأمام هذه

الفاترينة يسيل لعاب المواطن وتتقلص رغباته فلا يعود يفكر إلا فى محاولة اقتناء هذه الأشياء . . ويتحول إلى حيوان ذى بعد واحد هو أن يكدح ويكدح ويكدح ليشترى هذا وذاك . . وبذلك يقع فى الفخ وينسحق ويصبح واحداً من الثيران العمياء المربوطة فى الساقية . . وهو لا يجد حلاً للفكاك من هذا الاستعباد سوى إعلان الرفض والثورة .

وليس عند هربرت ماركيوز حل بديل ولا نظام بديل وإنما هو يكتفى بالتحريض على الثورة والرفض والهدم .

وهو يائس من تحريك طبقة العمال فهى فى نظره تحولت إلى طبقة متآمرة منتفعة .

وهو يضع أمله فى فئات جديدة هى الطلبة والزنوج والنساء والمنبوذون فى كل مكان .

ولهذا اشتهر بأنه فيلسوف الثورة الطلابية .

واشتهرت كتبه بأنها وراء كل إضراب واعتصام طلابى .

ولكن أى مستقبل يبشر به ماركوز . . ؟ !

وماذا بعد تحطيم الأغلال التى تصورها فى رقاب المواطنين فى معسكر الشرق ومعسكر الغرب .

إنه يحلم بمجتمع بلا محظورات . . مجتمع يباح فيه الجنس والاستمتاع الجنسى والعاطفى والجمالى بلا موانع من دين أو خلق أو تقاليد .

ويتصور ماركوز أن هذا هو التقدم . . وأن هذا الانطلاق هو الحرية المنشودة . . وينسى أنه خروج من قيد إلى قيد أسوأ . . خروج من قيود الحزب السياسى والخطة والتنظيم وانطلاق من أغلال رأس المال للوقوع فى سخرة الغرائز واستبداد الرغبات البهيمية .

هربرت ماركوز

(اليهودى الرابع)

والإنسان إنسان طالما استطاع أن يقاوم ما يحب ويتحمل ما يكره فإذا تحول إلى لعبة فى يد غرائزه ونزواته فهو والبهيمة سواء بسواء والإشباع الجنسى ليس هو السعادة .

والإشباع الجنسى موجود فى أمريكا .

والسويد جنة بهذا المعنى فالبنت تستطيع أن تدعو عشيقها إلى فراشها والأب والأم ينامان فى الغرفة المجاورة دون حرج . ومع ذلك فالسويد فيها أعلى إحصائيات الانتحار والجنون . . فهى ليست العالم السعيد الذى تصوره ماركوز .

وماذا يعدنا به ماركوز فى مجتمعه مما لا نستطيع أن نفعله فى مجتمعاتنا الحالية . . إن الفتيات والفتيان الهيبيز يتضاجعون ويتناكحون فى الحدائق العامة بلا حسيب أو رقيب . . وإذا أغلقت باب شقتك عليك ولم تزعج الجيران فإنك تستطيع أن تغترف من الجنس ما تشاء حتى الشذوذ الجنسى والقانون فى إنجلترا يحميك ويحرسك ويسهر عليك .

وهذا هو نفس المجتمع الشقى التعس الذى يثور عليه ماركوز . . ولكنه التملق . . إن ماركوز يتملق الطلبة والفئات المراهقة بهذا التدنى الرخيص والغوغائية الفلسفية ويحاول اكتسابها إلى جانبه بدغدغة غرائزها . . وهذا هو الوجه القبيح من ماركوز ومعول التخريب الذى يخفيه فى قفازه الفلسفى الأنيق .

وماركوز هو بعض الرياح التى تهب علينا من الغرب والشرق لتقتلعنا من جذورنا .

ولا يصح أن نغلق نوافذنا دون هذه الرياح . . كما لا يصح أن نترك أنفسنا لها حتى تلقى بنا إلى خواء الغربة بعيداً عن أرضنا وتربتنا . . وإنما علينا أن نتفتح على كل جديد ونقرأ بعيون ناقدة وعقل فاحص ينتقى ويختار ويضم إلى تراثه الحضارى كل جديد مفيد .

لا يصح أن نكون فى عزلة عن العالم .

ولكن لا يصح أيضاً أن نترك أنفسنا تمزقنا الأفكار الوافدة والمذاهب المستوردة كل ممزق وتجعل منا شراذم وأفراداً ونشارة ومسحوقاً بشرياً لا يصلح لشيء سوى أن يكون مواطئ أقدام المستغلين الأذكياء من شتى المذاهب .

طريقنا إلى النجاة

فى مدينة فاس بالمغرب قضيت أجمل الأيام وأكثر الأيام إثارة للفكر والتأمل .

ومدينة فاس قطعة جميلة من التاريخ القديم ما زالت على حالها . . الشوارع الضيقة المبلطة الصاعدة الهابطة والبوابات والدروب التى لا تتسع للسائرين إلا إذا مشوا الواحد خلف الآخر . . والمساجد العتيقة . . ودكاكين الحدادين والفحامين والعطارين والدقاقين بنفس حالها الأول ، البيوت الكالحة المهدمة من الخارج فإذا دخلتها أذهلتك النظافة والجمال والأعمدة المطعمة والزخارف العربية الأنيقة والفسقيات والترف العربى الأصيل . . وهم يقولون فى فاس أن بيوتهم حالها مثل حال الدراويش . . من الخارج خرقة قديمة مهلهلة ومن الداخل قلب أبيض كالبللور . . وهذا صحيح .

وأهل فاس ناس طيبون يصلون الصلوات الخمس فى أوقاتها ويبدؤون حفلاتهم الموسيقية بمديح نبوى (محمد يا صاحب الشفاعة) ويفتتحون خطبهم السياسية بالبسملة والصلاة على محمد ، والكثير منهم متصوفون وأهل تواضع ، لا يدعون العلم ولا البركة ولا يسعون إلى شهرة ولا إلى ربح مادى ويؤثرون

العبادة والاجتهاد الروحى فى خلوة بعيدا عن أعين الفضوليين ، وقد قضيت أياما أحاول الاتصال بواحد منهم دون جدوى . . كل واحد منهم يقول أنه لا يعلم من أمور التصوف شيئاً ويوصينى بالبحث عن رجل آخر راسخ فى العلم ، فإذا وجدت الآخر قال لى إنه فقير وعلى باب الله ، ولا يفهم شيئاً ، ويوصينى بالبحث عن ثالث . . قطب وغوث ومفتوح عليه فى الأمور الربانية . . فاذا وصلت إلى القطب قال انه تلميذ مبتدئ لا يفك الخط واستغفر الله من تهمة العلم وقال أنها حسن ظن لا يستحقه وأوصانى بالذهاب إلى باب الفتوح فلان وباب الفتوح يتنصل من الفتوح ويحولنى على بحر العلوم ، وبحر العلوم يحولنى على محيط المعرفة . . وهكذا . . فى حلقة مفرغة من التواضع لا تنتهى . . وآخر الأمر أصل إلى باب جامعة القرويين ، وهى أقدم جامعة دينية ، فهى أقدم من الأزهر (تاريخها أكثر من ألف عام) وبها أكبر علماء الشريعة . . فيقابلنى هؤلاء العلماء بنفس التواضع والحياء والرقة .

لا شك أن التراث الروحى مطبوع على كل باب وعلى كل قلب فى هذه المدينة النادرة .

ولكن شيئاً ما يثير التأمل يحدث الآن فى فاس . . فقد دخلت أسلاك الكهرباء بيوت المدينة القديمة ، ومن ورائها الترانزيستور والتليفزيون ، وقاعات السينما انتشرت واحدة بعد الأخرى فى الدروب والأزقة . . وصورة جيمس بوند ظهرت على الجدران وإلى جوارها أفيشات الجنس العارية وأبناء وبنات نفس الجيل الطيب المتدين المتصوف يخرجون من البيوت بقمصان مشجرة ومينى جوب .

وتشاهد فى الزقاق البنت فى مينى جوب تتأبط ذراع أمها التى تلبس العباءة والحجاب وتسير الاثنتان مترافقتين إلى السوق . وخارج فاس القديمة بنيت مدينة جديدة على الطراز الغربى ، شوارع واسعة وملاهى ومقاهى . . والمارسيدس والبويك وأحدث صيحات الفورد تمرق فى الشوارع يفوح منها عطر الشانيل

وتقودها مغربيات رائعات الحسن مصففات الشعر على أحدث فورمات حلاقى باريس .

والجيل الجديد يصلى الجمعة وينسى باقى الفروض . . ويتناقش فى نظرية داروين بحماس ولا يلتفت كثيرا إلى ما يقوله علماء الشريعة .

أن الطراز الغربى من الحياة يسحق الطراز الشرقى القديم سحقاً .

والعقلية العلمية تطرد العقلية الصوفية وتحل محلها .

وقد قضيت أمسيات طويلة أفكر وأنا أذرع شوارع فاس وأقول لنفسى . . سوف يدخل العلم من الباب ويخرج الإيمان من الشباك .

وسوف يصيب هذا البلد فقر روحى كامل فى يوم من الأيام إذا لم يتدارك أهله الخطر . فتصبح مثل باريس أو لندن يتحدث كتابها عن العبث والعدمية ، وينتحر شبانها ويدخلون مصحات الأمراض العقلية وتغرق فى الأبهة والثراء ولذات الحواس ، ويموت قلبها تدريجيا . . وتذكرت الشعور الذى سادنى ذات مساء وأنا فى باريس فقلت لنفسى : يبدو أن الله غير موجود هنا .

هذا أمر يمكن أن يحدث لفاس . . ويمكن أن يحدث لأى بلد عربى . . وكنت أعصر ذهنى وأقول . . ماذا نفعل . . ؟ ؟

ماذا يمكن أن نفعل حتى لا نفقد أنفسنا خلال هذا التطور السريع الساحق الماحق الذى يعطينا قشرة مادية ويسلبنا جوهرنا وشخصيتنا وأعماقنا .

لا شك أن ما يحدث الآن هو انتصار خطير واستعمار ناجح للأسلوب الغربى فى الحياة . . إنه استعمار يدخل علينا عقر دارنا ، بل هو يدخل علينا عقولنا وقلوبنا .

لن أقول ما يقوله الرجعيون بأن الواجب أن نغلق بابنا على أنفسنا ونرفض الكهرباء والتليفزيون ونرفض مبتكرات العلم الغربى لما تحمله فى طياتها من كفر

ودعارة . . ونرفض العلوم الغربية المبتذلة ونكتفى بكتاب الله .

مثل هذا الكلام لا يقوله إلا أحمق فضلا عن أن الكفر والدعارة موجودان منذ الأزل ومن قبل التليفزيون وكتاب الله نفسه يقول لنا . . سيروا فى الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق .

إنه يحضنا على أعمال الفكر والعقل واكتشاف سنن الحياة والتطور .

وإذا كان علماء الغرب قد سبقونا إلى العمل بالآية القرآنية فهذا ليس ذنب الغرب وإنما ذنبنا وعلينا أن نتعلم ألا ندفن عقولنا فى الرمال هربا من حقيقة جهلنا وتخلفنا .

ولسبب آخر يجب أن نتعلم . .

لأن الغرب يدق الباب على القارة الأفريقية ليمزقها من جديد ، هذه المرة مسلحاً بالصواريخ وأحدث مبتكرات العلم فى فنون الدمار .

فى نيجيريا والكونغو والفلبين واسرائيل تولد الأطماع ، هذه المرة أطماع ذات أنياب علمية فيها كل قدرات العلم الشرسة .

وواجب الدفاع عن الحياة والنفس يقضى علينا بأن نتعلم كيف نصارع ونتفوق فى نفس الحلبة .

ولن تنفع تلاوة الآيات والأوراد فى رد قذائف المورتر .

والقرآن نفسه يقول لنا : « **وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة** » .

والاعتماد على اقتراض السلاح عند اللزوم يأتى دائماً ومعه التبعية للترسانة الجديدة التى سوف نقترض منها السلاح ، وهذا يعنى الخروج من شرك للوقوع فى آخر

إذن لا بد أن نصنع لأنفسنا بأنفسنا ونتعلم ونتابع أحدث ما أخرجت نظريات

هؤلاء المفكرون كانوا ماركسيين ثم نبذوا الماركسية وانقلبوا ضدها

علماء الغرب فى فنون الدمار وفنون الخير معًا .

العلم ضرورى . .

ولكن المشكلة هى كيف نأخذ هذا العلم .

إن المنهج العلمى الموضوعى يقوم على استنباط قوانين الطبيعة من التجربة ومن استقراء الشواهد المحسوسة ، ولهذا فهو يتضمن رفض كل ما هو غيب ، وكل ما هو غير محسوس .

ولهذا تستبعد العقلية العلمية فكرة الله والقدر والجن والملائكة والعالم الآخر ابتداء ودون مناقشة . . وإذا لم نحل هذه المشكلة لطالب الابتدائى والثانوى الذى نلقى إليه بكتب الكيمياء والطبيعة والكهرباء فإنه سوف يدركها بنفسه وسوف يدخل فى صراع من أفكاره الدينية الموروثة ، وهو صراع سوف ترجح فيه كفة العلم إذا اختار هذا الطالب طريق الجامعة ، وإذا غرق أكثر وأكثر فى تخصص علمى .

وأكبر خطأ ارتكبناه فى حق هذا الطالب اننا قسمنا التعليم إلى نوعين تعليم دينى ، وتعليم علمى .

هذه الازدواجية التى فصلنا فيها بين أزهر وجامعة كانت أكبر خطيئة لأنها كانت الباب الذى خرج منه المتعلم الجامعى من دينه . . كانت الطلاق البائن بينه وبين تراثه الروحى .

والعلم فى نظرى لا يقبل الازدواج لأن الحقيقة واحدة كل ما فى الأمر أن هناك حقائق فى محيطنا البشرى يمكن معرفتها بالاستقراء ، والتجربة وحقائق إلهية لا يمكن معرفتها بالتجربة ، ولا يمكن أن تأتينا إلا وحياً ، ولا تناقض بين الاثنين ، ولا يصح أن يستبعد أحد العلمين العلم الآخر .

ولا بد أن تضم الجامعة كلا النوعين من التعليم من سنواتها الأولى إلى سنواتها

الأخيرة ، وأن يكون الدين مادة أساسية ، وأن تكون المعارف الإلهية مادة أساسية .

وأن يكون صراع الدين والعلم فى ذهن الطالب صراعاً بصوت عال يشترك فيه الطالب والمدرس من بدايته وأن يتعرف الطالب من البداية على أن هناك نوعين من الحقائق . . حقائق موضوعية كالكهرباء والذرة والبخار يمكن أن يجتهد فيها بالتجربة وحقائق إلهية خافية لا يمكن أن تأتى إلا وحياً عن طريق الرسالات . . وهذه الحقائق وسيلة اليقين فيها القلب وليس العقل .

الحقيقة الإلهية حقيقة إشراقية تشرق على الوجدان ، ولا تطلب بالتمحيص العقلى ولا يبرهن عليها بالحجج المنطقية . . لأن ذلك ينزل بالحقيقة الإلهية إلى درك التجارب المعملية ، وهو ما لا يمكن أن ينتهى إلى يقين أبداً .

ولا تناقض بين العلوم الإلهية والعلوم الموضوعية . . كل الفرق أن العلوم الإلهية أشمل وأكثر إحاطة وأنها علوم يقينية بينما العلوم الموضوعية علوم جزئية احتمالية إحصائية تتغير فيها النظريات وتتبدل .

وسوف يقتضى هذا تغييراً فى المناهج العلمية والمقررات وكتبا جديدة توضع .

وسوف يقتضى أن يخرج متصوفة فاس من خنادقهم وعزلتهم ليفيدوا الناس بما وصلوا إليه فى خلوتهم . . فليس تصوفا أن يحاول كل واحد أن ينجو بنفسه . . وإنما التصوف الحقيقى هو الذى يهدف إلى خلاص الكل ونفع الكل . والعزلة والتقوقع والانغلاق ليس فى سنة نبينا ، ولا فى سيرته . . والكتم والسرية بلا مقتض هى كهانة ماسونية وليست إسلاماً .

بهذا يمكن أن نأمل فى أن نأخذ من الغرب علمه دون أن نفقد تراثنا الروحى .

ذلك التراث الذى كان أعظم عطاء أعطته هذه الأرض مهبط الأديان

وبذلك يمكن أن نأمل فى أن يخرج من مدارسنا كل يوم من يستطيع أن يرد على ماركس وفرويد ، وأن لا نكون كالذئاب الذى يقع فى شراك خيوط العناكب الواهية الذى تحيكه كل يوم العقول اليهودية العبقرية التى تريد أن تصيبنا فى القلب . . فى الصميم ، قبل أن تنقض علينا لتلتهمنا ، وسوف تكون هذه التربية العلمية أكثر من مجرد خطة علمية . . سـوف تكون خطة سياسية للاهتداء إلى فكر جديد نابع من تراثنا وواقعنا أفضل من التقليد والجرى وراء الموضات الفكرية الأجنبية .

ولننظر إلى ما نفعله الآن فى السياسة .

أننا كدول نامية لا ننظر إلا إلى تجربتين رائدتين . . الشيوعية فى الشرق . . والرأسمالية فى الغرب ولا نكاد نتصور أن هناك حلا آخر . . فإذا وجدنا أن كلا التجربتين لا تصلحان لنا ، بدأنا نبحث عن حلول وسطى بين المدرستين وبدأنا نصنع منهما تركيبة ملائمة .

ولو نظرنا إلى الإسلام لوجدنا فيه نبعا من الأفكار والحقائق تسبق النظامين تقدما ومعاصرة ، ولوجدنا كل ما حسبناه جديداً فى الاشتراكية العلمية هو أمر قديم قدم ثلاثة عشر قرنا فى الإسلام . . فقد جاء الإسلام من البداية مقرراً مبدأ المساواة فى الفرص ، وضمان حد الكفاية للفرد وتحقيق التوازن بين حرية الفرد فى الربح وحقوق المجتمع ، ومبدأ الملكية الخاصة والملكية العامة (القطاع العام والخاص) ، ومبدأ تدخل الدولة فى الاقتصاد ، وهو ما نسميه اليوم بالاقتصاد الموجه . . ومبدأ مصادرة أموال المستغلين لصالح الفقراء والمظلومين .

فالإسلام لا يسمح بالطبقية ، ويحرم تداول المال بين فئة محدودة من الأغنياء .

«**كى لا يكون دولة بين الأغنياء منكم**» ٧ – الحشر

والعزة فى الإسلام بالتقوى وليست بالغنى .

« **إن أكرمكم عند الله أتقاكم** » ١٣ – الحجرات .

إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم وإنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم .
(حديث نبوى)

الناس سواسية كأسنان المشط ، لا فضل لعربى على أعجمى إلا بالتقوى .
(حديث نبوى)

والآيات التى فهم منها البعض معنى طبقياً لم تكن تعنى هذا المعنى على الإطلاق .

« **نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات** (أى خلقنا الذى يتفوق بعقله ، وخلقنا الذى يتفوق بيديه) **ليتخذ بعضهم بعضا سخريا** (العقل يسخر اليدين هذه هى الطبيعة والمنطق) .

« **الله فضل بعضكم على بعض فى الرزق** »

٧١ – النحل

« **ولكل درجات مما عملوا وليوفيهم أعمالهم وهم لا يظلمون** » ١٩ – الأحقاف .

ومعنى ذلك أن الدرجات يقصد بها تفاوت الأرزاق بتفاوت الأعمال (**ولكل درجات مما عملوا**) .

درجات الدنيا والآخرة . . وهى ليست بالوراثة ولا بالطبقة ، وإنما بالأعمال والاجتهاد . . فالملكية كلها لله (**لله ملك السموات والأرض**) وإنما نمتلك أموالنا استخلافا . . الله يستخلفنا عليها .

« **وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه** » ٧ – الحديد .

« **وآتوهم من مال الله الذى آتاكم** »

٣٣ – النور

والاسلام ضد التفاوت الفاحش فى الثروات وهناك أكثر من آية ضد الترف والمترفين « **واتبع الذين ظلموا ما أترفوا فيه وكانوا مجرمين** »

١١٦ – هود

« **حتى إذا أخذنا مترفيهم بالعذاب إذ هم يجأرون** » ٦٤ – المؤمنون

« **إذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها** (أى فسقوا فى أمرنا) **فحق عليها القول فدمرناها تدميرا** » ١٦ – الاسراء

وهو مع ذلك ليس ضد الغنى إذا كان بضوابط .

« **لا بأس بالغنى لمن أتقى** » (حديث نبوى)

« **نعم المال الصالح للعبد الصالح** » (حديث نبوى)

« **فى أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم** » ١٩ – الذاريات

أما الحد الأدنى للحياة فيجب أن يكون مكفولا للجميع .

الناس شركاء فى ثلاثة الماء والكلأ والنار .

(حديث نبوى)

وثروة الغنى لا تكون ثروة مشروعة إذا كان فى المجتمع فقير واحد لا يجد القوت « **ليس منا من بات شبعانا وجاره جائع** »

(حديث نبوى)

« **من كان له فضل زاد فليعد به على من لا زاد له** »

(حديث نبوى)

وقد رأينا نماذج من تدخل الدولة فى الاقتصاد على عهد عمر بن الخطاب .. فقد صادر عمر كل زيادة غير معقولة فى أموال ولاته بما فيهم سعد ابن أبى وقاص وخالد بن الوليد والصحابى أبو هريرة وعمرو بن العاص وغيرهم

وذلك لمجرد شبهة استفادة الوالى من منصبه .

« ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها إلى الحكام لتأكلوا فريقا من أموال الناس بالإثم وأنتم تعلمون » ١٨٨ – البقرة

ورفض عمر تمليك المسلمين للأرض المفتوحة بالغزو واعتبرها ملكية جماعية كما رفض تمليك الأرض الحمى (الوقف الخيرى) والمناجم والثروات فى باطن الأرض واعتبرها فى حكم القطاع العام .

ومنع عمر بيع اللحوم وأكلها يومين متتاليين من كل أسبوع حينما قلت اللحوم . . ومن كان يخرج عن هذا المنع كان يضربه بالدرة قائلا : « هلا طويت بطنك يومين » .

وباع عمر السلع المحتكرة جبرا من محتكريها بثمن المثل وكان يسعر بعض السلع منعا للتحكم والاضرار بالناس .

وقال عمر عند موته كلمته المشهورة حينما رأى حوله نماذج الثراء الفاحش لو استقبلت من أمرى ما استدبرت لأخذت فضول الأغنياء فرددتها على الفقراء . . واعتبر الإمام ابن حزم امتلاك الأرض حراما إلا لمن يزرعها .

واعتبر أبو ذر الغفارى أن ثروة الأثرياء لا تكون حلالا إذا كان فى المجتمع فقير واحد لا يجد الكفاف .

وحرمة المال الخاص فى الإسلام حقيقة مثل حرمة المال العام .

كل المسلم على المسلم حرام دمه وعرضه وماله .

(حديث نبوى)

ومن يتعدى على المال الخاص تقطع يده كمن يتعدى على المال العام .

والإسلام يجمع بين المنطق الشكلى والمنطق الجدلى (المنطق الشكلى هو

المنطق الأرسطى القائل بثبات الموجودات فالشجرة اليوم هى الشجرة غدا . . والمنطق الجدلى هو المنطق الهجيلى الديالكتيكى القائل بتغير الموجودات الدائم ، فكل موجود يحمل بذرة فنائه فيه) . . وهما منطقا الثبات والتطور . . فالإسلام يجمع بين التمسك بالأصول العقائدية الثابته ، وبين الاجتهاد فى الفروع والتفاصيل والتطبيقات (وهو ما نسميه بالتطوير) . . ويقول بتغير الأحكام الفرعية مع تغير الأزمنة والأمكنة . . وهو ما يسميه الفقهاء ، اختلاف زمان ومكان لا اختلاف حجة وبرهان . . ومن هنا كان الحديث النبوى . . بأن اختلاف الأئمة رحمة . . لأنه اختلاف فى التفاصيل اقتضته الظروف المتغيرة .

ولهذا نقول بأن السياسة الاقتصادية فى الإسلام هى سياسة إلهية من حيث الأصول ووضعيه من حيث التطبيق والتفاصيل .

ويقوم المنهج الإسلامى فى أصوله الإلهية على أساس فكرة التوفيق بين مصلحة الفرد ومصلحة الجماعة ، فهو لا يسحق الفرد لصالح الجماعة (كما فى الشيوعية) . . ولا يسحق الجماعة لصالح الفرد (كما فى الرأسمالية) .

ولكن إذا استحال التوفيق كما فى حالات الحروب أو المجاعات أو الأوبئة فإن التطبيق الإسلامى يختار المصلحة الجماعية ويقرر أن يقتسم الناس الطعام بالتساوى ولو عاشوا جميعا على أنصاف بطونهم .

ويقول عمر فى عام المجاعة :

لو لم يجد الناس كفايتهم من القوت فعلى أهل كل بيت أن يستضيفوا مثل عددهم فيقاسموهم أنصاف بطونهم ، فانهم لن يهلكوا على أنصاف بطونهم .

ولكن هذا الاجراء هو اجراء طوارئ . . وحكمه حكم الجراحة العاجلة فى حالة الخطر . . وهو خروج من الأصول إلى الفروع (لتغير الظروف والملابسات) . . وهو ليس الدستور الإسلامى للحياة العادية .

أما فى الحالة العادية فالمنهج الإسلامى يلتزم بالأصول الإلهية وهى استهداف التوازن الدقيق بين مصلحة الفرد ومصلحة الجماعة .

« لا تظلمون ولا تظلمون » ٢٧٨ – البقرة

« لا تبخسوا الناس أشياءهم » ٨٥ – الأعراف

« لا ضرر ولا ضرار» (حديث نبوى)

وفى حديث نبوى آخر تلخيص جميل لهذا التوازن الدقيق بين المصلحتين :

إن قوما ركبوا سفينة فصار لكل منهم موضع فنقر رجل منهم موضعه بفأسه فقالوا له ماذا تصنع قال هذا مكانى أصنع فيه ما أشاء . . فإن منعوه نجا ونجوا . . وان تركوه هلك وهلكوا .

ولهذا يخطئ من يتصور الإسلام رأسماليا .

ويخطئ من يتصور الإسلام شيوعيا .

ويخطئ من يتصور الإسلام وسطا حسابيا بين النظامين أو تلفيقا بينهما .. فالحقيقة أن الإسلام منهج اقتصادى متميز ينطلق من منطلقات مختلفة . . وان اتفق فى هذه النقطة أو تلك مع هذا النظام أو ذاك .

فهو ينطلق من فكرة التوفيق والمصالحة والتعاون والتكامل . . وليس من فكرة الصراع الطبقى والتناقض .

وهو يهدف إلى التوازن بين الفرد والمجموع وليس إلى تذويب الأفراد فى المجموع (كما فى الاشتراكية العلمية) . . أو إلى التضحية بالمجموع لصالح قلة من الأفراد الرأسماليين (كما فى الفكر الرأسمالى) . . إنما التوفيق والمصالحة هو دائما المنطلق .

وإذا كنا نجد فى الاقتصاد الرأسمالى أن حرية الفرد فى الربح هى الأصل

وأن تدخل الدولة هو الاستثناء .

وإذا كنا نجد فى الاشتراكية العلمية أن تدخل الدولة وانفرادها بالنشاط الاقتصادى هو الأصل . . وإن أباحتها بعض الحرية للفرد هو الاستثناء .

فإننا فى الإسلام أمام شيء مختلف . .

فالحرية الفردية فى الربح أصل فى المنهج الإسلامى والملكية والفردية أصل . . كما أن تدخل الدولة فى الاقتصاد أصل والملكية العامة أصل .

وحين يقرر الإسلام الزكاة فانه يشرع تدخل الدولة ويقيم أول مؤسسة ضمان اجتماعى . . وهو يجعل هذا التدخل واجبا حتى لا يصبح المال دولة بين الأغنياء وحكرا لطبقة دون باقى المواطنين .

والملكية العامة مقررة كأصل فى أراضى الوقف الخيرى والمعادن والكنوز فى باطن الأرض والأرض المفتوحة بالغزو والمساجد . . كل هذه ملكية عامة للدولة .

كما أن الملكية الفردية أصل يقطع يد من يتعدى عليه .

وحرية الفرد فى الربح أصل . . ولكن الإسلام لا يتركها مطلقة . . وإنما يضع عليها قيودا فلا يجوز إنتاج الخمر أو التعامل بالربا أو الاحتكار أو حبس المال عن الانتاج (الاكتناز) أو صرفه فى سفاهة أو جمعه من الرشوة أو الاضرار بحقوق الآخرين أو المغالاة فى الأسعار .

ويتميز منهج الاقتصاد الإسلامى بشيء آخر لا نجده فى الرأسمالية . . أو الاشتراكية العلمية . . هو إشباعه للحاجات الروحية وليس المادية وحدها . . فمعاملة الله وإرضاؤه أصل فى الإنفاق وفى الإحسان . . ويقول نبينا عليه الصلاة والسلام . . أن الصدقة تقع فى يد الله قبل أن تقع فى يد المحروم .

وهذا يعطى للمنهج الاقتصادى سموا فى الهدف وشرفا فى المعاملة . . فالمؤمن يشعر أنه يتعامل مع الله رأسا .

كما أنه يمنح الحاكم رقابة مزدوجة . . هى رقابة الله ورقابة الضمير على الأفعال . . زيادة على رقابة مأمور الضرائب .

وهذا الإشباع الروحى يحمى المجتمع . . من الخواء النفسى والخراب العصبى الذى وقعت فيه مجتمعات الرخاء الأوروبية مثل السويد أو الاشتراكيات الملحدة فى الشرق حيث نجد أعلى نسبة من الجنون والانتحار رغم توفر ضمانات العيش للجميع .

والسبب أن النظام لا يشبع الحاجات الروحية ولا يروى ذلك العطش المقدس فى داخل الإنسان العطش إلى الله الحق رغم أنه يشبع البطن والغرائز وهم لا يفهمون هناك أن الإنسان ليس مجرد بطن وغرائز .

والصبغة الروحية للنشاط الاقتصادى شرط من شروط الإسلام . . فالعمل الصالح المفيد والنافع لا يكفى عندنا كهدف للمؤمن . . ولا يكون هذا العمل مقبولا إلا إذا قصد به العامل وجه الله . . والله غير محتاج .

« إن الله لغنى عن العالمين » ٦ – العنكبوت

ولكن العامل هو المحتاج لهذا التوجه لأنه يستمد به القوة والمدد من ربه . . وإنما عمل الكافر مهما كان صالحا فهو كرماد اشتدت به الريح فى يوم عاصف لأنه يتصور أن توفيقه هو من عند نفسه . . وأن نجاحه مهارة وشطارة ، فهو من زرع الأنانية وحصاد الغرور .

ولا انفصال فى الإسلام بين ما هو روحى وبين ما هو مادى .

وفى حديث قدسى أن الله يقول يوم القيامة :

يابن آدم مرضت فلم تعدنى . . قال رب كيف أعودك وأنت رب العالمين ؟ . .

قال تعالى : أما علمت أن عبدى فلاناً مرض فلم تعده . . أما علمت أنك لو عدته لوجدتنى عنده . . يا ابن آدم استطعمتك فلم تطعمنى . . قال رب كيف أطعمك وأنت رب العالمين . . قال تعالى : استطعمك عبدى فلان فلم تطعمه . . أما علمت أنك لو أطعمته لوجدتنى عنده . . يا ابن آدم استسقيتك فلم تسقنى . . قال رب : كيف أسقيك وأنت رب العالمين . . قال : استسقاك عبدى فلان فلم تسقه . . أما علمت أنك لو سقيته لوجدت ذلك عندى .

فالعمل الصالح الخالص لوجه الله هو مادى روحى معا . .

يقول عمر بن الخطاب :

والله لئن جاءت الأعاجم بالأعمال وجئنا بغير عمل فهم أولى بمحمد منا يوم القيامة .

والمال لا يقصد لذاته فى الإسلام . . ولكنه يقصد كوسيلة إلى تقوى وسبيل إلى عمل صالح ومرحمة ومودة . . وهذا الفرق بين معنى المال فى اقتصاد مادى رأسمالى واقتصاد مادى اشتراكى فهناك ينظر إلى المال كقوة اقتصادية ووسيلة للسيطرة والغلبة والفعل دون ظلال روحية خارج هذا المعنى الجاف الجامد .

أما نحن فنقول :

« وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة »

وهذا يجعل توظيفنا للمال فى التعمير والتنمية شيئا أشبه بالصلاة أو الفروض التعبدية نرجو به الآخرة ورضا الخالق .

والغنى الذى لا ينفق من ماله لصالح من حوله هو عندنا فى مرتبة الكافر **« أرأيت الذى يكذب بالدين فذلك الذى يدع اليتيم ولا يحض على طعام المسكين » ١ – ٣ – الماعون .**

ولو مارسنا تنفيذ الخطة الاقتصادية بهذه الروح الدينية التعبدية فإننا

سوف نصنع المعجزات فى سنوات قليلة ونلحق بركب التقدم بسرعة الصاروخ .. فنحن عندنا دول عربية تتكامل اقتصاديا فيما بينها لتؤلف أمة يمكن أن تكون أغنى وأقوى من الأمة الأمريكية . . رقعة جغرافية فيها البترول والحديد والفحم والنحاس والمنجنيز والذهب واليورانيوم بالإضافة إلى محاصيل زراعية وفيرة وثروة حيوانية وثروة سميكة بلا حدود وأيدى عاملة بلا عدد . . وتصوروا إمكانيات السعودية والكويت ودول الخليج مع إمكانيات مصر والسودان والشمال الأفريقى إذا خططنا لربطها والاستفادة بها .

إن السودان وحده فيه عدة مديريات كل مديرية بحجم فرنسا . . وأكثر محاصيل المانجو والموز هناك تتعفن وتقع من على شجرها ولا تجد من يأكلها أو يعصرها .

ونحن الآن فى عصر التكتلات الاقتصادية الكبرى (السوق الأوروبية المشتركة . . والسوق الشيوعية المشتركة) .

وفى بلادنا طاقة مادية وطاقة روحية إذا توحدتا صنعتا معجزة .

ألم يقل برناردشو :

« إنى أرى فى الإسلام دين أوروبا فى أواخر القرن العشرين » .

ومن قبله جوته :

« إذا كان هذا هو الإسلام أفلا نكون مسلمين »

ثم جاك أوسترى أستاذ الاقتصاد الفرنسى :

« إن طريق التنمية ليس محصورا فى الرأسمالية والاشتراكية بل هناك اقتصاد ثالث راجح هو الاقتصاد الإسلامى يبشر بأسلوب كامل للحياه يحقق كافة المزايا ويتجنب كافة المساوئ (الترجمة للدكتور محمد شوقى الفنجرى فى كتابه عن الاقتصاد الإسلامى) .

وفى البحث فى أعماق الإسلام والقرآن والسنة عن هذا الخط (الاقتصادى الاسلامى) والبحث فى حدوده ومواصفاته نجاتنا جميعا من التخبط بين الرأسمالية وبين الاشتراكية العلمية (وهى غير علمية كما رأينا) . . وفيه نجاة لنا من ترقيع حضارتنا العظيمة بحضارات هى فى الواقع فى حالة شيخوخة وانحلال (كالرأسمالية) . . أو فى طور تجربة واختبار (كالاشتراكية العلمية) . . وكلتا الحضارتين مادية تقوم على الفلسفة الظنية وتستهدف المصالح المادية الجافة دون ظلال من روح أو معارف إلهية أو يقين تسانده السماء ويؤيده الله . .

والاقتصاد الإسلامى كما رأينا يعطينا المزايا التى فى الاشتراكية العلمية وعليها زيادة من الاشباع الروحى وحماس العقيدة مع وجهات نظر أكثر تقدما ومعاصرة وأساليب أكثر انسانية ، وهو بالإضافة إلى ذلك يجنبنا جميع مزالق الفكر المادى وأخطائه ومظانه وما فيه من غربة بالنسبة لنا كفكر مستورد يقف عند باب قلوبنا ولا يدخلها مهما استعان الحاكم بقوة الاعلام وجبروت السلطة ونحن شعوب مؤمنة . . الإيمان عندنا هو العماد واللب والنخاع . وفى هذا الوادى عرفنا الله وعبدناه . . منذ سبعة آلاف سنة حينما كان هؤلاء المتحضرون برابرة لا يعرفون كيف يتكلمون .

والفكر المؤمن والفكر الملحد يطرد كل منهما الآخر ولا يمتزجان كالزيت والماء ولا يلدان إلا سفاحا ولا يتزاوجان إلا قهرا . .

ومحاولات التوفيق بين الماركسية والإسلام التى يقوم بها أمثال مكسيم رودنسون أو جارودى هى فى واقع الأمر تلفيق لا توفيق . . والدوافع الخافية وراء تلك المحاولات هى فكرة مكيافيللية لترويج بضاعة انتهى موسمها (وهى الماركسية) ، بوضع ماركة الإسلام عليها . . محاولة للتسلل إلى الشرق الأوسط داخل حصان طروادة . . وكما نعلم بدأت الماركسية بإعلان الحرب على الدين فلما فشلت أعلنت الهدنة وطلب الماركسيون من أتباعهم عدم التعرض للدين . . فلما فشلت الهدنة بدأت محاولات التحالف وبدأ دراويش الماركسية يتكلمون

بلغة أهل الله ويسبحون للحى القيوم ويعلنون الزواج الشرعى بين الماركسية والإسلام وهو زواج باطل ولا يمكن أن يكون إلا سفاحا . . فأما أن يكون الله موجودا كما نقول . . أو يكون غير موجود كما يقولون . . ولا رأى ثالث ولا بضاعة « اسلاموماركسية » إلا عند المحتالين الذين يريدون التسلل إلى الفكر الدينى لاحتوائه . . وحكاية الماركسى الذى يحمل كتاب ماركس فى يد والمسبحة فى اليد الأخرى هو إنسان يدجل على نفسه أو علينا أو هو إنسان مصاب بانفصام فى الشخصية وفى حاجة إلى علاج عاجل من هذا التناقض والتخليط . . ونحن لا نرى داعياً لهذا الخلط والتلفيق . . ونرى أن الإسلام يقدم كافة الحلول العصرية لمشكلة العدالة الاجتماعية .

فلماذا نعاند الفطرة . . ولماذا لا نعود إلى الطبيعة السمحة البسيطة . . لماذا لا نسمى مكتسباتنا وإنجازاتنا وخطواتنا التى أحرزناها على طريق التقد باسمها الحقيقى . . لماذا لا نسميها عدالة إسلامية واقتصاداً إسلامياً . . ما دامت بالفعل موجودة فى كتابنا وخارجة من تراثنا . . لماذا لا نسمى المولود باسمه الشرعى ما دام مولوداً شرعيًّا بالفعل ؟ . . إنه لن يكون مجرد اسم جديد . . وإنما فتح . .

سوف نستطيع أن ننقد الموجود من خلال تراثنا ونطور الموجود من خلال هضمنا لتراثنا . . وسوف نصل إلى حلول أقرب إلى روحنا وشخصيتنا .

إنه فتح طريق إلى مزيد من العدالة للفلاح والعامل والجندى والمثقف . ثم هو تعرف على النفس . . وميلاد للشخصية العربية . . وبعث لطاقة هائلة أقوى من الذرة .

مارد راقد يخافه الكل . . ويهابه الشرق والغرب . .

اسمه الإسلام . .

وديننا لا يمنعنا من الاستفادة من المعارف المتاحة . . بل هو يحضنا على ذلك حضًّا ويأمرنا بطلب العلم ولو فى الصين .

ودِيننا مرن وطيع وعصرى وسمح . . ويضم فى عبادته كل الأديان فى حنان وأخوة . . ويجعل من كل الأجناس أسرة واحدة . . الأسود والأبيض والأحمر والأصفر . .

ألم يجعل من سلمان الفارسى وصهيب الرومى وبلال الحبشى أخوة يحاربون صفًّا واحداً . .

ألم يقل نبينا :

« سلمان منا آل البيت »

لماذا يخافون الإسلام ؟ . .

لماذا يخاف العالم من طبيبه ؟

صدر للمؤلف

١ – **الله والإنسان** – مجموعة مقالات كتبت فى صيف ١٩٥٥ .
٢ – **أكل عيش** – مجموعة قصص قصيرة كتبت بين ١٩٥٣ – ١٩٥٤
٣ – **عنبر ٧** – مجموعة قصص قصيرة كتبت بين ١٩٥٥ – ١٩٥٧ .
٤ – **شلة الأنس** – مجموعة قصص قصيرة كتبت بين ١٩٦٢ – ١٩٦٤ .
٥ – **رائحة الدم** – مجموعة قصص قصيرة كتبت بين ١٩٦٥ – ١٩٦٦ .
٦ – **إبليس** – دراسة كتبت فى عام ١٩٥٧ – ١٩٥٨
٧ – **لغز الموت** – دراسة كتبت فى عام ١٩٥٨ – ١٩٥٩ .
٨ – **لغز الحياة** – دراسة كتبت فى عام ١٩٦٧ .
٩ – **الأحلام** – دراسة كتبت فى عام ١٩٦١ .
١٠ – **اينشتين والنسبية** – دراسة كتبت فى عام ١٩٦١ .
١١ – **فى الحب والحياة** – مجموعة مقالات كتبت بين ١٩٦١ – ١٩٦٦ .
١٢ – **يوميات نص الليل** – مجموعة مقالات كتبت بين ١٩٦١ – ١٩٦٦ .
١٣ – **المستحيل** – رواية كتبت فى عام ١٩٦٠ .
١٤ – **الأفيون** – رواية كتبت فى عام ١٩٦٤ .
١٥ – **العنكبوت** – رواية كتبت فى أوائل عام ١٩٦٥ .
١٦ – **الخروج من التابوت** – رواية كتبت فى أوائل عام ١٩٦٥ .
١٧ – **رجل تحت الصفر** – رواية كتبت فى عام ١٩٦٦ .
١٨ – **الإسكندر الأكبر** – مسرحية كتبت فى صيف ١٩٦٣ .
١٩ – **الزلزال** – مسرحية كتبت فى صيف ١٩٦٣ .
٢٠ – **الإنسان والظل** – مسرحية كتبت فى عام ١٩٦٤ .
٢١ – **غوما** – مسرحية كتبت فى شتاء ١٩٦٨ .
٢٢ – **الشيطان يسكن فى بيتنا** – مسرحية كتبت فى أبريل ١٩٧٣ .
٢٣ – **الغابة** – رحلة إلى أفريقيا الاستوائية كتبت فى أكتوبر ١٩٦٣ .
٢٤ – **مغامرة فى الصحراء** – رحلة إلى الصحراء الكبرى فى صيف ١٩٦٩ .
٢٥ – **المدينة (أو حكايات مسافر)** – مجموعة سفريات إلى أوروبا بين ١٩٥٦ – ١٩٦٨ .
٢٦ – **اعترفوا لى** – مختارات من رسائل القراء بين ١٩٥٦ – ١٩٥٩ .
٢٧ – **٥٥ مشكلة حب** – مختارات من رسائل القراء بين ١٩٦٠ – ١٩٦٦ .

٢٨ – **اعترافات عشاق** – مختارات من رسائل القراء بين ١٩٥٦ – ١٩٦٦ .
٢٩ – **القرآن محاولة لفهم عصري** – دراسة كتبت فى شتاء ١٩٦٩ .
٣٠ – **رحلتى من الشك إلى الإيمان** – دراسة كتبت فى عام ١٩٧٠ .
٣١ – **الطريق إلى الكعبة** – رحلة حج كتبت فى عام ١٩٧١ .
٣٢ – **الله** – دراسة كتبت فى أوائل ١٩٧٢ .
٣٣ – **التوراة** – دراسة كتبت فى أوائل ١٩٧٢ .
٣٤ – **الشيطان يحكم** – مجموعة مقالات كتبت بين ١٩٦٥ – ١٩٧٠ .
٣٥ – **رأيت الله** – دراسة كتبت فى صيف ١٩٧٣ .
٣٦ – **الروح والجسد** – مجموعة مقالات كتبت فى شتاء ١٩٧٣ .
٣٧ – **حوار مع صديقى الملحد** – مجموعة مقالات كتبت فى مارس ١٩٧٤ .

مجموعات المؤلفات الكاملة :

٣٨ – **قصص مصطفى محمود** – صدرت فى بيروت عام ١٩٧٢ .
٣٩ – **روايات مصطفى محمود** – صدرت فى بيروت عام ١٩٧٢ .
٤٠ – **مسرحيات مصطفى محمود** – صدرت فى بيروت عام ١٩٧٢ .
٤١ – **رحلات مصطفى محمود** – صدرت فى بيروت عام ١٩٧٢ .
٤٢ – **الماركسية والإسلام** – صدر عن دار المعارف فى فبراير سنة ١٩٧٥ .

حازت روايته « رجل تحت الصفر » على جائزة الدولة عام ١٩٧٠

تم إيداع هذا المصنف بدار الكتب والوثائق القومية
تحت رقم ١٩٧٥/٢٠٢٨

مطابع دار المعارف بمصر – ١٩٧٥
١/٧٥/٢٠

١٤٣١/٠١

ط
٣٠

To: www.al-mostafa.com